محمد كمال محمد

دوائر الحزن

قصص مصرية

دوائر الحــزن

كان الدكان ضيقا لا يتسع للكثير من الأشياء .. لكن صاحبه علق على واجهته لافتة كتب عليها « .. ٥ صنف » !.. وأعلى اللافتة لافتة أكبر تقول مرحبة « أشرقت الأنوار وانقشع الظلام ؟

يتندر أهالي البحر الصغير على العبارة الفصيحة مبتسمين : من أين جاء « الخواجا نخلة » بها . . ولماذا اختار تلك الكلمات ؟

كانوا ينادونه « خواجا نخلة » .. لا أدرى من أين جاء هذا اللقب .. أهو أجنبى تمصر ولبس الطربوش وتعلم لغتنا العامية وتكلم بها بطلاقة دون لكنه أجنبية .. ويتبادل مع البعض النكات والقفشات ؟!

كان الدكان يقع على بعد أمتار من دكان أمي بائعة الفاكهة . كان عميق الطول ، فى نهايته شباك واسع يطل على مكاتب شركة الأتوبيس ذات الطابق الواحد ومحطتها الرئيسية ..

تجئ مرجريت ابنة نخلة فى الصباح الباكر تفتح الدكان .. وفى الضحى يجئ أبوها حاملا لها شطائر الفول للفطور ..

كنت لا أحتاج إلى شراء شيء من الدكان غير تلك الأشياء التى احتاجها لمدرستى .. وبعض « النوت » الصغيرة التى أحب اقتناءها لأدون فيها أفكارى وخواطرى الساذجة !

فى أغلب الأوقات كان يحلو لى شراء أقراص «الكراميل» المستديرة المسماة «مشروع القرش» التى صنعت إثر دعوة أحمد حسين صاحب حزب مصر الفتاة إلى مشروع سماه «مشروع القرش» : يتبرع الفرد بقرش لإنشاء مصنع للطرابيش ، لباس الرأس الوطنى بدلا من استيراده من النمسا .

كنت منجذبا للوقوف أمام مرجريت احتضن بنظراتى سحر عينيها الخضراوين الذى يذهب بى بعيداً !

كان يشجعني لأطيل الوقوف ابتسامتها لي حين أدخل الدكان .. اطرد من خاطرى انها ابتسامة بحكم الجيرة !.. كانت الابتسامة تدير رأسي .. يجنح خيال بدايات الشباب ، يصور لي أن ثمة ثمرة سوف اجتنيها بهذا الذى بدأ يحمله قلبي لمرجريت !

غير أني أحيانا كنت أرتد ألى الواقع وينتابني الإكتئاب ويتملكني اليأس .. وأحاول اقناع نفسي بان ما أتطلع إليه محض وهم أعيشه !.. أود أن أطفو على السطح فلا أغرق فيه !

كنت في اجازة الصيف حينها ، استذكر المادة التى تخلفت فيها لأؤدى أمتحان الدور الثانى للشهادة النهائية من مدرسة المعلمين المجانية ..

ولكي تضمن أمي مواصلة المذاكرة كانت تعتقلني طوال النهار لأجلس جوار الدكان على كرسى قديم من القش اعدته لى ... أدفن وجهى فى الكتاب مكرها ... بعد وقت أضيق بقعدتي فأنهض لأتمشى بطول الرصيف حتى ناصية الشارع .. ألمح حركة مرجريت داخل الدكان فينخذب قلبى إليها !

أعود إلى جلستى حتى عند الغروب فأنهض لأشعل لمبة الجاز للدكان .. عندها تعطيني أمي قرشين مصروف اليوم وتسمح لي بالإنصراف ..

فى ذلك الوقت تحديدا كانت مرجريت تغادر الدكان لتذهب إلى بيتهم ..

أتبعها من بعيد ..

كان يمكن أن أسرع للحاق بها .. لكني كنت أتهيب الأقتراب منها ! .. وطوال الطريق كنت أتأملها فى مشيتها الوئيدة .. وكان قلبي يخفق !

فى أطراف عزبة المنشية المجاورة التى تسكنها وعلى حافة الترعة الضيقة المحاذية لصف البنايات ، كان يقع بيتهم ذو الطابق الواحد .. تكسو واجهته تعريشة عنب كثيفة الأوراق .. تمتد التكعيبة الخشبية أمام البيت كمظلة خضراء لا يبين من واجهته غير بابه الأخضر .. وأمامه على حافة الترعة شجرة صفصاف صغيرة منحنية على الحافة ..

كان البيت يمتلكه نخلة .. وكان هو زارع شجيرة الصفصاف التى نمت واستطالت وإمتدت فروعها الخضراء .. وكان هو صاحب تعريشة الكرم ..

على ضوء عمود الكهرباء كانت مرجريت تدلف تحت الكرمة وتدخل البيت لتغيب عن عينى ..

أعود إلى حجرتنا الأرضية أدخلها لأجلس وحيدا فى انتظار أمى .. وكان كثيرا ما يدهمنى أحساس قاس باليأس .. وأمام عينى مرجريت .. فتنساب دموعى !

كنت أبتهج حين ترسلنى أمى إلى دكان نخلة لأشترى مشطا أو أزرارا أو بكرة خيط وإبرة ..

بينما أقف أمام مرجريت أتمنى أن تطول لحظة الوقوف ، كان هناك بعضهم من مستخدمى شركة الأتوبيس ببذلاتهم الصفراء يتمسحون فى قضبان الشباك الخلفى يطلون على مرجريت مبتسمين لعلها تبادلهم الأبتسامة ! تنظر الى نظرة ذات معنى وتبتسم ..

لا تلتفت نحوهم ويظل وجهها الجميل المتوهج مواجها لى .

فى كل مرة حين أهم بمغادرة الدكان كان نخلة يفاجئنى بصوته الغليظ : « سلم لى على أمك ! » !.. أتحول إلى مرجريت بنظرة توسل ليكف أبوها عن ترديد تلك العبارة !

كان فارع الطول .. أحمر الوجه المستطيل .. يلبس الطربوش فى

أناقة .. يفتل شاربه الأسود من وقت لآخر .. يضع فى أصبعه المبروم خاتما كبيرا ذو فص أسود ..

عندما يمر قرب دكان أمى ليعبر النهر الصغير المسمى البحر الصغير بالمعدية إلى عزبة المنشية .. يرفع يده محييا : « أزيك يأم جمال » !

تبتسم أمى وتلوح له بيدها ترد التحية ..

فى الضحى بينما يتجه إلى دكانه نشيطا منتعشا .. يحيى أمى : نهارك سعيد يأم جمال » .

كان يردد دائما إنه أول من فتح دكانا فى حى البحر الصغير لبيع «الأصناف » التى يعرضها .. يبالغ فيقول أن « المنصورة » كلها تعرف ذلك !

فى ظهيرة يوم دخلت دكان نخلة متعللا بشراء شىء .. كانت مرجريت هناك وحدها .. وكانت تقضم ثمرة خوخ صبغت شفتيها الرقيقتين بالحمرة فبدتا شهيتان .. وجنح بى الخيال كعادته فحلمت بتقبيلهما ذات يوم !

عدت إلى دكان أمى وجلست على الكرسى مهتاج الشعور .. يلازمنى أحساس بالأكتئاب واليأس ..

ـ قم ليجلس عمك كشك ..

انتبهت لصوت أمى ..

كان الرجل يقف على بابُ الدكان متكئا على عكاز خشبى .. على وجهه أثر انكسار وألم ..

كانت إحدى ساقيه مقطوعة ..

ادركت سر انكساره عندما قال لأمى بينما وقفت إلى جواره

آتامله :

ـ طردتنى أم خليل .. لم يعجبها رجل مقطوع الساق .. لم يعد يتكسب قرشا ..

بينما كنت منشغلا يخايلنى وجه مرجريت مضت أمى تحادث الرجل ، فلم انتبه لشىء من حديثهما ..

نادتنى قائلة :

ـ مشوار صغير مع عمك كشك إلى بيتنا وسأعود ...

أوصتنى الا أبيع شيئا من الدكان لأحد ..

ونحن نتناول العشاء قالت أمى فى حجرتنا .

ـ اسكنت عمك كشك فى حجرة فوقنا .. طلبت من صاحبة البيت أن تخليها من الكراكيب ..

بعد لحظة عادت تقول ان الرجل كان سائقا على عربة شركة الدخان .. أصيب فى حادث على الطريق الزراعى وبترت ساقه .. تنكرت له زوجته الخياطة وطردته من الشقة التى تستأجرها باسمها .

قالت انه كان صاحب أبى .. كان يأتى إلى حجرتنا ليسهر معه يتسامران .. وحين كنت طفلا صغيرا كان يحضر لى معه الحلوى .. أبى لقلة كسبه كان يقترض منه النقود ولا يستطيع ردها .. كان رجلا طيبا وفيا .. نزاعا للخير .. يوم مات أبى تكفل بكل شىء حتى وورى أبى التراب ..

مضت تقول :

ـ اشتريت له دكة خشبية للنوم من جارنا الأسطى حبيب المزين .. استغنى عنها ، كان ينوى أن ينقلها إلى بيتهم فى جديلة ..

قالت :

ـ أعطيته اللحاف القديم المركون عندنا .. ووسادة صغيرة لا نحتاجها ..

فى الصباح أرسلتنى أمى إلى بيت كشك فى عزبة الشال المجاورة لعزبة المنشية لأحضر له ثيابه .. هناك وجدت الثياب القليلة معبأة فى شكارة أسمنت قديمة .. تنتظر من يأتى ليأخذها ..

فى طريق العودة استبدت بى الرغبة أن أمر على بيت نخلة .. أرنواليه كأنى أراه لأول مرة .. أرى مرجريت بخيالى داخلة !

بعد أيام عدت من دكان نخلة لأجد كشك يحتل مكانى جوار دكان أمى . يجلس أمام صندوق زجاجى يضعه على منضدتى الصغيرة التى استذكر عليها دروسى فى حجرتنا ..

فى الصندوق عدد قليل من صناديق السجائر الكرتونية التى يحوى الصندوق منها مائة سيجارة .. إلى جوارها وناسة مشتعلة وصندوق كرتونى يمتلئ بشرائح رفيعة من ورق علب السجائر .. يبيع السيجارة للزبون ويشعلها له من الوناسة بشريحة الورق ..

وضعت لى أمى قفص من جريد الفاكهة جوار كشك لأجلس عليه .. تمنينى بأنها سوف تحضر لى كرسيا آخر !

بين الحين والآخر كان كشك يطلب منى أن أحل محله ليذهب إلى حى ميت حدر .. يشترى صناديق السجائر ... يعود فأنقده حصيلة البيع الضئيلة .

حين يسمع أذان الصلاة فى المسجد المجاور يلتقط عكازه ويجلسنى مكانه ليؤدى الصلاة ..

مع الأيام كنت أستشعر شفافية روحه .. وقلبه الرهيف الحساس .

كان يرى ابنه الشاب يعبر الطريق لينزل إلى المعدية ذاهبا إلى بيتهم ، لا يلتفت نحوه كأنه لا يعرفه ..

يطرق ويسند رأسه بين كفيه يعتصره الآلم :
ـ لم أكن قاسيا يوما ... حقنته أمه بسموم الجحود والعقوق والكراهية .. يتجنبني كأني وباء ..
يحس ان ولده يلفظه كما لفظته أمه ..
يحبس الدموع ..
تنظر إليه أمي في عطف .. تحادثه لتلهيه عن أحاسيسه الأليمة ..
كانت مرجريت تأكل عنبا من طبق خزفي وضعته أمامها على البنك الزجاجي ..
قالت مبتسمة حين دخلت الدكان :
ـ تفضل عنب ..
ابتلعت ريقي وقلت :
ـ شكرا ..
دخل أحدهم يطلب علبة سجائر .. لم تلتفت إليه .. تناولت مقصا قسمت به عنقود العنب نصفين .. مدت يدها لي بالعنقود :
ـ قطفته من عنبتنا .
لم أستطع أن ارد يدها .. بخفقة قلب مددت يدي وتناولت العنقود .. حباته شفافة أرى البذرة داخلها ، كأنها شفتا مرجريت تبتسم !
كان هناك العنب الذي تبيعه أمي في دكانها .. وكان يمكن أن أطلب شيئا منه .. لكن عنب مرجريت كان مختلفا ! .. فهل هناك عنب في مثل حلاوته !
في أصبحة الآحاد كان نخلة يبكر في المجئ إلى الدكان .. لتذهب مرجريت إلى الكنيسة ..
انسرق من مكاني لأتبعها من بعيد .. تمشي متئدة الخطى

بفستانها الحريرى .. وحذاؤها الواطئ .. وجوربها الأبيض القصير ..

تصعد الكوبرى العالى فيصعد قلبى خلفها ! .. تتوقف لتطل من فوق سور الكوبرى على القطارات فى حركتها الدائبة بمحطة القطارات .. أجمد فى مكانى لا تتحول عيناى عنها ..

تستأنف السير لتهبط الكوبرى إلى شارع السكة الجديدة مسرعة كأنما تمخشى أن تتأخر عن موعد الكنيسة .

* * *

فى الضحى كنت مستغرقا فى الكتاب المدرسى .. بينما كان كشك يتناول فطوره من الطعمية ذات الأقراص الكبيرة ، أحضرها له من « أبو شامة » صاحب المقهى القريب الذى يصنعها بيده شهية ويبيعها أمام مقهاه !

كان كشك يقضم فى شهية البصل الأخضر الذى يهوى أكله فى وجبات طعامة .. « دامو » بائعة الفجل العوراء التى تجلس فى نهاية الرصيف ، ترسل له مع أبنتها الصغيرة حزمة البصل الكبيرة بعد أن تقشر له رؤوسها ..

كان يتأفف من القرويين الذين يفترشون الرصيف بعد عودتهم فى العصر من سوق الثلاثاء جوار دامو .. ليأكلوا البصل الأخضر مع السردين المملح وخبز المدينة .. وينصرفون الى قراهم تاركين الفضلات تنشر رائحتها فى المكان ..

رفعت رأسى عن الكتاب خين توقفت أمامى سيارة أجرة سوداء مكتوب على جدارها « أجرة القاهرة » ..

أنجذبت نظرتى إلى شخص بداخلها يجلس على المقعد الخلفى .. لم أصدق عينى . كانت فاطمة رشدى الممثلة الفاتنة التى رأيتها فى العام الماضى فى فيلم « العزيمة »

أهي حقا فاطمة رشدى بلحمها وشحمها أمام عينى ؟!

لم أتمالك نفسى .. نهضت بلا وعى واقفا أحملق نحوها .. التفتت وأبتسمت ..

سقط الكتاب من يدى !

وددت بخيالى الجامح أن تمد يدها لى من باب السيارة لأهوى عليها بفمى أقبلها !

جلست أمد رقبتى نحوها بنظراتى ..

رأيتها تحدث السائق .. فنزل سريعا من السيارة وأشترى من أمى رطلا من الموز .

رحت أرقب الفنانة الجميلة مأخوذا وهى تقشر فى تأن أصابع الموز وتقضم منها فى رقة آخذة !

وجهها بلا مساحيق .. وكان ساحرا ..

خمنت أنها ذاهبة للاصطياف فى رأس البر ..

أدركت أن السيارة توقفت فى هذا المكان أنتظارا لفتح الكوبرى المؤدى الى طريق المصيف ..

لم تمكث السيارة طويلا .. تحركت مغادرة . جريت لأقول لمرجريت أننى رأيت فاطمة رشدى بشخصها !

سألت :

ـ من فاطمة رشدى ؟

ـ الممثلة ..

قالت :

ـ لا أعرفها ! .. لم أسمع عنها !

فى اندفاع قلت مؤملا :

ـ عندما يعاد عرض فيلم العزيمة .. سنذهب معا لأريك فاطمة رشدى .

قالت مستنكرة .

ـ نذهب معا ؟!

هزت رأسها :

ـ لن يحدث هذا طبعا !

وجمت وسخرت من أحلامى !

* * *

حتى ساعة الظهيرة كان دكان نخلة مغلقا ..

دهشت وأنتابنى قلق مبهم ..

قالوا : مرجريت مختفبية من ساعة المغرب أمس .. بعد مغادرتها الدكان لتذهب إلى بيتهم ..

* * *

قالوا : مرجريت أحبت أحدهم .. وأغواها بالهرب معه .. جمدت فى جلستى بلا حراك غير مصدق

دون أن أشعر انحدرت دموعى تعسا .. بائسا .. مشفقا على مرجريت أن يصيبها مكروه !

تلقيت الخبر بأسى فاجع .. عصف بأحلامى !

فترت شهوتى للحياة .. شقيت بخيالى الموؤود !

مكثت طوال الأيام التالية غارقا فى الصمت الطويل .. أنسحب من كل ما حولى .

تلبسنى يقين بأنى راسب فيما سأؤديه من الامتحان لا محالة ..

تزيغ نظراتى كلها هممت أن أمد بصرى أتطلع إلى الأشياء !

أعود إلى شرودى !

ورغم ذلك كانت تتعاظم عاطفتى المشبوبة التى أحملها لمرجريت .. تزيدنى عذابا .

ظل دكان نخلة مغلقا أياما طويلة .. تساءل أهالى البحر الصغير الى متى سيظل الدكان مغلقا ؟

ايقظنى فى ساعة مبكرة من الصباح ألم ينبح فى إصبعى .. طرفها داكن متورم قليلا .

أريتها لأمى قابضا عليها ساخنة فى راحتى أضغط الألم .. قالت :

ـ مد وحس .. أذهب الى الأسطى حبيب المزين ليعمل اللازم .

واعطتنى خمسة قروش ..

عند عودتى من دكان حبيب العجوز متخلصا من ألم إصبعى كان دكان نخلة مفتوحا .. بدا لى الدكان مظلما لغياب مرجريت .. وكان نخلة لا يغادر كرسيه داخل الدكان لا يخرج كعادته فى وجود مرجريت ليقف على بابه بعض الوقت يشهد حركة الناس ويفتل شاربه !

عندما يغادر ليذهب الى بيته يمشى مهتزا كالمترنح .. مطاطئ الرأسى يتوجع فى داخله .. لا يرفع صوته بتحية أمى .. تهدل شاربه .. وجهه كأنما فارقته حمرته فبدا شاحبا بائسا ينضح بالألم .. يدخل الزبائن الدكان فيقضى طلباتهم فى صمت ثقيل الحركة .. يبدو أنه لا يسمع ولا يتكلم .. كأنما أصيب بالبكم والصمم .. كأنه فى عزلة عن البشر .. وكانوا يرونه أحيانا جالسا على كرسيه محنى الرأس مغمض العينين كالنائم .

* * *

قالت أمى وهى تطرح على « جنبة » العجوة الخوصية قطعة القماش البيضاء الرقيقة لتمنع عنها الهجمات الكثيفة للذباب ! :

- عمك كشك غاب فى الجامع .. ليست عادته .. المصلون رأيتهم يخرجون ..

قبل أن أنهض لأذهب الى الجامع .. جاء أحد زبائن أمي يقول :

- كشك مات وهو يصلي .

داخلني إحساس حاد بالحزن .. فيما خايلتنى مرجريت .. ارسم ملامح الوجه الذى أحببته .. حتى لا يغيب عن عينى !

وكانت أمي جزعة .. تبكي فى صمت .

* * *

اختنــاق الضــوء

ظلت « السرجة » مغلقة أياما ..

جاء راجي شاحب الوجه .. طويل اللحية .. زائغ النظرة .. غائر العينين .. منهكا كأنه خارج لتوه من سجن مظلم احتوى جسده النحيل سنين طويلة .. يفتح « السرجة » يوما ويغلقها أياما ..

لم يعد يقف لى على بابها نتحادث ... لم يعد يمسك كتابا ... اقرأ في الأفق ضبابا متكاثفا ..

كل شئ يظلم أمامه ... وليس ثمة عينان جديدتان لا تريا اختناق الضوء .

فى النفس تبقى مرارة .. فى القلب يبقى جرح ..

* * *

كنت وحدى الذى يعرف سره .. حبه العارم الذى يعيشه بكيانه ، يستثير دهشتى المقترنة بالألم ..

من بداية صداقتنا وجدتنى أعيش معه قصة معاناة فوق الطاقة .

كان دكان أبى تاجر أجولة الخيش القديمة يتجاور مع « سرجة » عمران ، التى يمتلكها راجي بعد ما تركها له ابوه عند حصوله على « البكالوريا » ، معتزلا العمل مؤثرا الخلود الى الراحة بعد عناء السنوات ..

كنت أنشغل أغلب الوقت فى ترقيع خروق الأجولة وترميم التآكل ..

حين افرغ من العمل أقف لراجي على باب الدكان نتحادث طويلا بينما يقف هو الآخر لى على باب « السرجة »

يختصنى بأسراره وغرامه بـ« تريزا » .

كان خيالى النزعة مرهف الحس .. مدمنا لقراءة الكتب ..

لا يدخل عنده الزبون ، رجلا أو امرأة ، الا ويجده ممسكا بكتاب يحنى عليه رأسه ليقرأ مستغرقا . ويقضى للزبون طلبه .. يعود للكتاب بعد ما يمسح يديه من أثر الزيت بفوطة يضعها دائما على منضدة صغيرة .

لا أستغرب ما يحدث منه عندما تمر تريزا أمام « السرجة » فى الشارع الضيق لا تشعر بوجوده ... ليس فيها ما يستأثر بالشعور ويستفز العاطفة ! .. أعجب لغرامه المجنون بها !

كان يهب من مكانه داخل « السرجة » ويقف على الرصيف الضيق تتعلق عيناه بها فى وجد ولوعة !..

فى الجانب المقابل من الشارع يراها تدخل بيتهم .. ينتظر حتى تصعد إلى شقتهم فى الطابق الثانى ... يزايل مكانه فى هدوء مشدودا لشىء فى داخله ... يدلف الى بيتها ... ينحنى على درجات السلم التى وطأتها قدماها .. يقبلها حتى باب شقتها ..

يعود محتقن العينين .. شاحب الوجه ... ينقذف داخل «السرجة» مختفيا ، كأنما هناك من رأى فعلته !

* * *

« رأتنى مرات أمرغ شفتى فى موضع قدميها .. لم اكن أريد ان ترى ذل كبريائى » . يسكن الألم عينيه :

« ترى هل أدركت جنونى بها ! .. هل أحست مقدار شقائى ! »

* * *

رآها تخرج من بيتهم وحولها هالة من الضوء لا يراها غير العاشق .. كاد يتهاوى فى وقفته على الرصيف حين رنت نحوه بنظره طال انتظاره واحتراقه لها !

تراجع فاستند الى مصراع باب « السرجة » ناظرا نحوها فى

ضراعة .. بينما ثقلت خطواتها عند « السرجة » متمهلة فى سيرها .. انحنت فى رشاقة متظاهرة بأنها تعدل من جوربها حول ساقيها .. اشارت بيدها اشارة لم يغب عن المحب فهمها !

ترنح فتشبث بالمصراع ليتماسك .

انتظر لحظات حتى توارت خلف جامع الناصية .. تحرك خلفها يستمد قوة تواتى بدنه المضعضع بالمفاجأة والفرحة معا ..

كانت تريزا ابنه تاجر نزح من مدينته نجع حمادى ، ليستقر فى مدينة المنصورة محترفا تجارة العسل الأسود فى وكالة واسعة .. يجلبه من مدينته الشهيرة بالزراعات الواسعة لقصب السكر .. قبل أن يموت بأشهر ترك تجارته لإبنيه الشابين ..

* * *

جاء راجى للسرجة بصبى من أبناء جارهم يدربه على البيع .. ليجلس هو نظيف الجسم والملبس خلف المنضدة الصغيرة :

« ألا يحق لتريزا أن تجدنى فى مظهر يليق بها ! »

* * *

عرفوا قصتها معى .. سيقتلونها .. قرأت هى ذلك فى عيون أخويها .. فالعقوبة عندهم معدة جاهزة مضاعفة .. لاختلاف الدين ! »

* * *

« كتبت تريزا الى خالها فى نجع حمادى خطابا .. اعطته لى لأضع عليه طابع البريد وألقيه فى الصندوق .. صارحته بحبها لى ورغبتها فى الزواج منى .. شجاعة ! ... قالت ان خالها يحبها وسيتفهم موقفها ويقدر عواطفها .. ترى ماذا سيكون وقع الخطاب على الرجل .. وماذا سيفعل ؟! » .

* * *

« سافرت تريزا الى خالها بدعوة منه ... ترى ماذا يريد منها ؟! »

* * *

« غابت تريزا طويلا ... ولا كلمة تلقيتها منها .. أتكون لا تستطيع أن تكتب اليّ ؟ ... ايكون قد احتجزها الرجل هناك ليحول بينها وبيني ؟! »

* * *

« انى قلق على تريزا .. أفكر فى السفر لأراها ! لكنى متردد ... أعرف عنوان خالها .. قرأته على مظروف خطابها إليه ... أريد أن أسافر .. لكنى أخشى ان أواجه هناك بما يجرح عزة نفسى ! » .

لم يستطع أن يمنع نفسه من السفر ، عندما رأى ام تريزا تتشح بالسواد .. ذابلة الوجه .. تخفض رأسها مشيحة عندما تمر أمام «السرجة » .. لكن نظرتها لم تغب عن عينيه ..

* * *

« هل حدث مكروه لتريزا ؟! .. بالتأكيد حدث .. سأسافر توا ! »

و« السرجة » مغلقة كان يمر عليها أخوى تريزا يلبسان هما الآخران الجلابيب السود كغرابين .. يخب كل منهما فى جلبابه الطويل يكنس ذيله تراب الشارع .. يرشقان باب «السرجة » بنظرة تشتعل بالغل والحقد ....

ينتابنى القلق ..

* * *

« عقدة الدين تقف بالمرصاد لنا ! .. تفرض الحكم بالاعدام دون تردد ! .. ماتت .. لم تطق سجن خالها وقهره لحريتها وسخريته القاسية من « الوهم الكبير » ، كما وصفه ، الذى تعيشه بأمل زواجها من واحد يخالفا فى الدين ! ... فالمستحيل كل المستحيل أن يتحقق

ذلك . يلدغها بلسانه المسموم فى صبحها ومسائها .. يعصف بالحلم الجميل ... يقصف الأمل ... يسحق الرغبة فى الحياة ... لم تحتمل رقتها وحسها المرهف قسوته الظالمة وتيئيسه لها ... وصدمتها فيمن ظنته نصيرها ومؤيدها ... شربت السم .. أصر أن تدفن هناك .. لو رأيتها لمددت يداى لوداع ليس بعده لقاء .. يكتبون علينا ألالقاء بالحبيب إلا فى السماء ! .. ليتنى امتلك النار المقدسة لكى اشعلها هنا وهناك ! .. ليتنى أمتلك القوة الخفية لأزيح سياج الأشواك ! » .

الغراب الأبيض

كان يرتدى بذلة الشرطة التى أراه بها لأول مرة ، حين التقينا بعد زمن ... شددت على يده أصافح معتزا بعد صداقة السنوات .. لكنى أحسست يده متراخية فى يدى ، وشىء ما يغلف وجهه المستدير .

أقلنا الأوتوبيس متجاورين على مقعد واحد فى الطريق الى المنصورة مدينتنا . .

قال حنا إنه مسافر الى المدينة فى اجازة ظفر بها ، ليستريح بعض الوقت من مسئولية المعتقل الذى يعهد إليه بالاشراف عليه ..

- أى معتقل ؟

- الإخوان المسلمون .. اشرف على معتقلهم ..

بينما لفتنى التماع عينيه قال :

- استمتع باذلالهم .. أتلذذ بتحطيم آدميتهم .

كان فى صوته نشوة عجبت لها :

- لماذا ؟

زاد التماع عينيه .. علت شفتيه ابتسامة لم أرتح لها .. إكتفيت بالسؤال دون انتظار اجابة توقيا الا أغضبه ..

يوم رآنى أقف مع مارى قرب بيتهم المجاور لبيته غضب وثار :

- ماذا بينكما ؟!

فى بساطة قلت :

- حب !

تبدلت سحنته :

- بين مسلم ومسيحية ؟!

دون مواربة قلت :

- سنتزوج

زاد هياجه :

ـ أيضا ؟! شيء فوق التصور !

ـ وافق أبوها

هدر مستنكرا :

ـ مجنون !

فى حنق شديد راح ينعته بأقبح الصفات !

توثقت علاقتنا مصادفة .. ولم يشب صداقتنا فارق المستوى .. وان كان ينتابنى فى أحيان احساس بالدهشة لتلك الرابطة التى تربط بيننا !

لم اعر ثورته اهتماما .. فلم يكن ثمة ما يشغلنى سوى زواجى من مارى .. كان يجيء الى فى المحلج الذى اشتغل به عاملا مؤقتا فى موسم القطن .. يقف خلفى نتحادث .. يرقبنى بينما امارس كتابة الحروف والأرقام على اكياس القطن بالحبر الأخضر .

كنت أحسده على دراسته بالثانوى .. تلك المرحلة التى حلمت ببلوغها بعد سنوات المدرسة الأولية دون أن يتحقق الحلم الذى بدالى بعيد المنال !

كنت بلا أهل .. تحاصرنى أيام الزمن بجهامتها وقسوتها وشحها ..

فى أيام رمضان كنت أدعو حنا الى حجرتى الصغيرة ليفطر معى .. يقول انه يمتنع عن الأكل فى بيتهم منذ فطور الصباح ليأكل معى قطع الكبد اللذيذة التى أطبخها بصلصة الطماطم ..

كنت دائما اضمرله فى قلبى المعزة والمودة الصافية ..

عندما احببت مارى لم تخنى الشجاعة ان أتقدم الى ابيها ليوافق على زواجنا .. كان كادحا مثلى .. يجوب شوارع المدينة بفوطة صدره

البيضاء وقدمه المعطوبة ، حاملا السفط الممتلىء بفطائر الجبن واللحم المغطى بقماش البفتة الأبيض .. ينادى : « بوريك سخن » «سخن يابوريك » ..

فى الليل يأوى سوريال الى حجرتهم .. بينما ينام مهدودا ، تقف مارى لى فى الشباك الواطىء تتهامس معى ... أقبل يدها القابضة على قضبان الشباك وتقبل يدى ..

- ماذا تعمل الآن

سالنى حنا ..

- احاول ان أعيش .. أشترى وأبيع فضلات الاقمشة ..

- تصارع من اجل اللقمة طول عمرك.

ابتسمت

- اعارك الحياة وأطاحنها .

- اتعجب لك .. صامددائما ..

أفضل وأجمل من الانسحاب أو الانطواء .. أو النقمة والاعتزال !

علق بدهشة :

- من اين تعلمت هذا ؟ !

- تعلمنى الأيام .

اردفت :

- معى الآن زوجة .. ترافقنى فى الطريق ..

قبل موعد زواجى من مارى بيوم واحد .. سافر سوريال إلى بلدهم ترافقه مارى .. ولم يعودا ..

- أفشلت زواجك من مارى ..

الآن فهمت !

أشعل سيجارته ..

ـ مع ثورتك أيامها لم أتصور أن تفعل ذلك !

ـ فعلتها ! .. اكره واحارب زواجا مختلف فى الدين !

حدقت إلى وجهه صامتا ..

ـ اتفقت أيامها مع صديقين لى .. سحبنا سوريال من شارع السكة الجديدة أثناء سيره ببضاعته إلى شارع مظلم فى حى الحسينية .. وضعنا السكاكين على رقبته .. هددناه بالذبح لو زوجك ابنته : «وحق المسيح ان فعلتها لن نتركك حيا على ظهر الأرض » .

حرمتنى وحرمتها .. كانت تتجسد فيها حياتى .. كنت لا أرى فى المنصورة الواسعة غيرها ..

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

كأنه لا يسمعنى يمتص دخان سيجارته فى شراهة محدقا أمامه ..

تتغير صورته الآن فى عينى .. لكنى لا أقدر على الانسحاب من صداقته .. دعوته للغداء فى بيتنا !

رأى زوجتى فقال فيما يشبه الهمس حتى لا تسمعه :

ـ يا ابن الذى أنت ابنه ! .. انها آية فى الجمال !

ـ مدرسة ..

قال متعجبا :

ـ كيف تزوجت من مدرسة ؟!

لم يستطع اخفاء شعوره الحقيقى نحو مستواى القديم .. واعتباره ان تلك الزيجة قفزة فى حياتى لا أستحقها !

وضعت له فى طبقه كما كبيرا من الطعام .. يقول مبتسما :

ـ هل سأ أكل كل هذا !

ـ لا تترك منه شيئا ..

كنت أتشبث بصداقته رغم شحوبها من جانبه ..

ـ انني سعيد بدخولك بيتي ..

* * *

ـ جاء صديقك الضابط أمس ، يلبس بذلة الشرطة التي يصر على لبسها في اجازته ! .. أيظن أنه يغريني بها !

ـ ما الأمر ؟

ـ قلت له انك في سفر لن تعود منه قبل يومين .. سمح لنفسه بالدخول والجلوس في الصالة .. تركت الباب مفتوحا .. وظللت واقفة .. جريئا مقتحما ابدى اندهاشه مستنكرا اني تزوجتك ! : « كان عاطلا يسكن حجرة حقيرة أأنف من دخولها ... حياته كانت بائسة .. لا أدري كيف صادقته ! « لم يتعلم ... كان يستلف مني نقودا وأنا طالب بالثانوي لا يردها « والدي من ذوي الأملاك ... حين لا يجد معي نقودا يلجأ الى السرقة ... كان يطلب مني ان أحفظه كلمات من الانجليزية لينصب بها على الناس ... هارب من حكم بالسجن ستة شهور في حادث سرقة ... كيف تسجنين نفسك مع شخص كهذا ! .. هل تقتنعين بانه شريكا مساويا لك ؟ ! هل تقرين بانه يستحق الحياة التي توفرينها له ؟ ! » ..

لم يترك عيبا الا نسبه اليك ... فهمت ماذا يريد من وراء ذلك ! ... قال ان لديه كلاما كثيرا يهمه أن أسمعه ! .. وسيجئ مساء اليوم ليقوله لي ! ... هو لا يعرف انك عدت اليوم من السفر قبل الموعد الذي حددته .

استمعت ذاهلا .. مطعونا .. احمل الألم الحارق في صدري .. ثمة نقلة في المسار ينوء بها قلبي الآن ، أحسستها تفكك كل رباط انساني اعتز به .. يغرقني شلال من الأسف والأسى والحسرة !

ثمة منعطفات لا أريد أن تقع عليها عيناي ..

قرب باب الشقة جلست حتى سمعت الطرقة ..

وقفت فى مواجهته .. عارى الرأس يحمل غطاء الرأس تحت ابطه ... فى لمحة أدرك الموقف .. تلجم فلم يفه بكلمة .. بدت فى عينيه نظرة سجينة ... تراجعت مفسحا :

ـ بيتك .. تفضل ..

احسسته يترنح فى داخله للطعنة .. جهد أن يتماسك دون كلمة .. استدار يهبط درجات السلم ... تخلخلت ساقاه فجأة فأمسك بالسياج .. سقط الغطاء .. فلم يلتقطه .. ظل يهبط السلم متهاويا ..

هبطت خلفه والتقطت الغطاء .. ناديته :

ـ حنا !

توقف مهتزا دون أن يرفع رأسه ..

قذفت إليه بالغطاء فسقط تحت قدميه ..

انسحبت صاعدا ..

الشباك

فى كل الصباحات يتربع على كرسيه الخشبى خلف الشباك الوطئ فى الطابق الأرضى .. الدنيا أمامه فى المساحة المستطيلة المواجهة للشباك .. عالمه الذى يعيش فى داخله منذ طلعة النهار حتى الغروب ..

يأكل فطوره فى بعض الأصبحة فى قعدته .. وحينا يأكله فى سريره لحظة استيقاظه عندما يشتد الجوع .

الشقة الصغيرة تضيق عليه أكثر بالفراغ والوحدة .. جسده مهدود منهك كأنما يمارس عملا شاقا فى كل أوقاته !.. لا يستطيع مغادرة الشقة بساقيه المتيبستين .. يرقب الحياة بصخبها الهادئ فى الشارع الضيق ..

حينما يطل من خلف الشباك ، يحس كأن الواقفين فى مواجهته والعابرين من أمامه ، يتهللون لرؤية وجهه الباسم .. ونظرته الودود .. ربما لن يعود واحد منهم مرة أخرى إلى الرقعة الحياتية التى ترسمها عيناه .. واقفا أو عابرا .. لكنه يستشعر معهم الأنس والمودة !.. كلّ صديقه الجميل .. يتمنى إلا أن يكون دوما بقربه ..

الصبى بائع الخبز باقفاصه المرصوصة جنب حائط البيت .. ماثل أمامه طوال النهار لا يغادر .. النسوة تحيط به يقلبن بأيديهن الأرغفة لينتقين من فوق ومن أسفل الأرغفة الأكثر نضجا .. يغالطه بعضهن فى عدد الأرغفة .. وتتعلل الكثيرات بخلو أيديهن من النقود .. ويستمهلنه إلى صباح الغد .. ويذهبن ولا يعدن .

يود من شباكه ان يكلمهن ليقول رفقا بالصبى .. فهو تلميذ غض بالمدرسة ، يكد ليتكسب القرش فى إجازته الصيفية .. يعينه على مواصلة الدراسة ..

لم يكن ثمة من يطرق بابه غير بنت جاره الصبية في الطابق العلوى .. أعد له أبوها جرسا داخل شقتهم .. يدق خلف بابهم ، كى يستدعى ابنته متى أرادها لتقضى حاجته .. لكنه قال للصبية أنه يفضل أن تطرق عليه الباب دون جرس منه ، ليسمع صوتها ولو لم يطلب شيئا .. فالطرقة والصوت يؤنسانه .. ولو للحظات ..

قال للصبى بائع الخبز انه يريد أن يأكل الخبز المحمص .. ابتسم الصبى فى ذكاء :

ـ خبز محمص ! كيف تأكله !!

كان ينسى فمه الخالى من الأسنان ..

يأخذ من الصبى رغيفا من أرغفته ، ويعطيه نقودا ليأتيه فى ظهر كل يوم بالطعمية الساخنة .. وليس بلازم أن يحضر معها المملحات فهو لا يستطيع مضغها .. لكن لابد أن تكون ساخنة .. « من الضرورى أن تكون ساخنة » ..

يكرر عبارته للصبى كل يوم :

ـ تذهب إلى المدرسة بعد إجازة الصيف .. جميل .. جميل .. أبشرك بمستقبل طيب ..

يتحدث معه .. كنت ذكيا فى طفولتى .. ذكيا جدا .. اميل إلى ابتكار أى شىء !.. كان أبى يرانى مشغولا دائما بعمل شىء .. أو صامتا مستغرقا فى التفكير .. لا استمتع بوقتى فى اللعب مثل بقية الأطفال .. لذلك كان يخاف أن أفقد أحساسى بالطفولة كالأولاد الذين تجبرهم قسوة الظروف المعيشية إلى العمل مبكرا .. ليجدوا لقمة الخبز ..

ينضم البعض إلى الصبى فى وقفته عند الشباك بدافع من الفضول .. يرتكنون على الحائط المشقق .. يتشاركون مع الصبى فى التحدث

إليـه .. يسعـد كثيـرا بهم .. ينظر فى عيـونهم المتطلعـة إلى وجـهـه المبتسم .. بينما يطالعون وجه الطفل الذى يحكى عنه ، بديلا للوجه المجعد ذو الفم المظلم .. يعيدهم إلى حاضره ! تكسبت كثيرا من مراحل العمر بفضل ذكائى .. وكنت أضعه ـ الذكاء ـ فى خدمة الناس وأخصهم الأصدقاء .. والآن يرتضى ليعيش فى شقة صغيرة بعد أن أعطى لأبنائه ما يملك من مال .. ثمار السنين .. لا يمتلك فى شقته غير آلة لقياس ضغط الدم قليلا ما يستخدمها ..

يلمح الفلاحة بائعة الملوخية تعبر الشارع بحمارها الضامر .. يشير إليها بيديه لتقترب من الشباك .. يعابثها ضاحكا مستهزئاً بحمارها الهزيل : أتراه بهذه الصورة يحتمل طفلا يمتطيه ؟! .. يخرج ذراعيه الرفيعتن من الشباك .. تمسك أصابعه عظمة كتفها البارزة تحت جلبابها الريفى الرقيق : أرنى يابنت ! .. ياه ! مقفعة كعظم حمارك .. يصالحها مقسما إنه لو يعرف الطهو لنفسه لاشترى منها الخضر كل يوم !.. تغادره الفلاحة باسمة الوجه الناشف الذى لوحته الشمس بسمرة داكنة .. تنخس رقبة الحمار بطرف عصاها الرفيعة منادية على بضاعتها .. خلفها صاح للتو لصبى يتمارج مرتبكا فوق دراجته : حاذر الدراجة !.. كنت أحب ركوب الدراجات فى صباى .. أسابق الأولاد .. يبتسم .. وأفوز دائماً ! ..

يتحسس ساقيه اليابستين .. ويتنهد ..

أشتهى أكل السمك المشوى .. تاقت نفسه إليه بشدة ... جاءت زوجة ابنة تزوره بديلا لزوجها فأعرب لها عن رغبته .. قالت أعطنى نقودا .. مدت يدها تأخذ عشرة جنيهات .. جاءت له فى اليوم التالى بسمكتين هزيلتين ورغيف مطوى فى لفافة من ورق الجرائد ... كان ينتظر أن تحضر له الأرز المسلوق جيدا ليزدرده مع السمك ..

تتبدل ملامح وجهه حين يطل من شباكه فتبدو كملامح طفلية .. تبين فيها الدهشة للأشياء التى تقع تحت بصره فى الرقعة الصغيرة المواجهة .. كأنه يراها للمرة الأولى .. يبتسم ويقهقه لكلمة يطلقها أحدهم ..

ذات صباح نقر عليه صبى الخبز شباكه ، يقول إنه طرق باب الشقة طويلا بالأمس ، حين وجد الشباك مغلقا .. ليعطيه الرغيف والطعمية ، الساخنة .. فلم يسمع صوته ..

تذكر الصحوة فى الليل بعد الغيبوبة الطويلة ، سقط فيها من ساعة الظهيرة ... خشى أن يعقب الغيبوبة الرحيل ..

عندما تركته الزوجة رفيقة الخمسين عاما .. ظن أنه لن يعيش طويلا بعدها .. ثقلت عليه الوحشة .. هانت عليه الحياة ... لكنه الآن .. وكلما مر عليه يوم جديد يعز عليه فراق الدنيا .. يزيد تشبثه بها ..

حمل كرسيه ... تربع خلف الشباك .. يطرد من داخله هاجس الغروب الوشيك ..

دس وجهه بين القضبان مطلا .. يرقب مستأنسا حركة الحياة .. يعيشها ..

المهاجرون

أثارت الكلمة انفعال أبى ، حين قالت أمى حزينة يائسة ، اننا أصبحنا الآن مشردون .

رد فى حدة :

- ماذا كنت تنتظرين ! . نعيش فى خطر دائم تحت قنابل الألمان ؟ !

رأته امى منفعلا فلاذت بالصمت . بينما بدت فى عينيها المحتقعتين أطياف الوحشة .. واختلج وجهها الكابى بتقلصات الأسى .

- تعرفين انى أحب الإسكندرية كواحد من أهلها .. لكنها الضرورة ..

تململ أخى الصغير فى حجر أمى .. وهم بالبكاء فراحت تربت على ظهره ليعاود النوم .. اثقلت رأسه هزهزة القطار فغلبه النعاس على كتفها . قبل إن تنقله الى حجرها .

غمغمت أمى :

- كان القرار مفاجئا .

- مضطرا لخوفى عليكم ..

أردف أبى :

- صعب عليك فراق البيت والمدينة . لكن هل كنا سنتحمل الرعب ليلنا ونهارنا ؟

بكى اخى فجأة : قالت أمى :

- عطشان الولد .. لابد أنه عطشان .

فى أسف قال أبى :

- من أين نأتى بالماء .. حتى رغيف الخبز نسينا أن نحمله لنتقوت به ... لا نعرف كم سيطول السفر !

حين سمعت كلمة الرغيف شعرت بالجوع ! ... لم يكن هناك بائع سميط أو غيره ممن يتجولون فى القطارات .. ايقظنا ابى من النوم فى الليل .. معلنا انه يتوجب سفرنا فى الصباح الباكر دون ابطاء ... قال ان قطارات مخصصة ستكون فى الانتظار خالية لنقل المهاجرين ..

لم نسأل ابى الى أين سنذهب .. دهمنا قراره :

ـ سقط طور بيد على حى البيّاصة .. سقطت الضحايا .. تهدمت البيوت .

متخوفا قال :

ـ لست أدرى هل بقى عمود السوارى على حاله هناك .. ! كان الرصيف العريض الممتد يعج بالحشود التى تدفقت متزاحمة لتستقل القطارات .

ما أن امتلأت القطارات حتى اكتظ الرصيف بأفواج جديدة تنتظر قطارا آخر .

كان شباك قارضو التذاكر مغلقا .. لا أجرة مقابل السفر .

دون جهة محددة نقصدها هجرنا البيت والمدينة فرارا من هول الغارات .

فيما كان أهل المدينة فرحين لانتصار الألمان فى الصحراء الغربية واقترابهم من مدينة العلمين .. وترقب وصولهم وشيكا لمدينة الإسكندرية .

البهجة تتنامى بالأخبار الجديدة التى تنبئ بتقدم الزحف الألمانى ، تشفيا فى الانجليز وترقبا للخلاص من وطأة الإحتلال .

كانت عربة القطار مكتظة بالركاب ... وكان بوسعى أن أقترب من النافذة المجاورة لمقاعدنا لأطل على القطارين الآخرين اللذان لحقا

بقطارنا .. وكانا بالتأكيد يزدحمان بركابهما .
قال أبى :
ـ السفر الى مدن الصعيد فى هذه الظروف آأمن وأفضل ..
همست أمى فى قلق .
ـ كيف سنعيش هناك ؟
اكتفى أبى بالصمت ... بدا أنه يفكر ..
تنهبت الى انه لا يلبس نظارته .. كان قد خلعها ليضعها على السرير ، بينما كان يعد فى عجلة حقيبة ثيابنا .. نسيها هناك بالتأكيد .. بعد وقت قليل قال :
ـ ليتنا نجد مكانا للولد فى مدرسة البلد الذى سننزل فيه .. ليواصل الدراسة ..
توقف القطار فجأة عند احدى القرى ..
عدت أطل من النافذة .. رصيف المحطة يموج بالفلاحين حفاة الاقدام .. بدأوا يتدافعون نحو نوافذ القطار المفتوحة .. يصيح بعضهم :
ـ أنتم المهاجرون ؟!
كنت استشعر ملامح الفقر فى الوجوه .
النسوة يحملن فوق رؤوسهن أسبتة ملأى بأرغفة الخبز الريفى .. بينما يحمل الرجال فى أيديهم أطباق الصاج الغويطة ممتلئة بالجبن القريش .. وبعضهم يحمل حزم السريس الأخضر وقلل الماء .
فى الحال امتدت الأذرع من النوافذ تتلقف الخبز والغموس والقلل..
تساقطت من نافذتنا الأرغفة وأعواد السريس .. والتقط أبى قلة من يد أحدهم ..

للتو اخرج من جيبه ورقة صنع منها قرطاسا صغيرا أخذ يقطر فيه الماء من القلة حتى امتلأ .. وضعه على فم أخي ليسقيه ..

عندما واصل القطار سيره ، وغابت عنا وجوه الفلاحين المشرقة بالطيبة هز أبى راسه متعجبا :

ـ كأنهم اهلنا وناسنا هؤلاء الفلاحين الذين لا يعرفوننا ! كأننا على موعد معهم ليقدموا لنا خبزهم ! . ما يحتاجونه يعطوه لنا ! . كيف عرفوا ؟! .. من أين سمعوا ؟!

بعد صمت عاد يتكلم :

ـ ليتنا نجد مثل هؤلاء الناس فى البلد الذى سنقيم فيه .. لنحس اننا لسنا غرباء بينهم !

كان القطار من وقت لآخر يتوقف باحدى المدن .. وكان بعض ركابه يغادرون .. ويقفون على الرصيف .. تتعلق عيونهم بالقطار والوجوه المطلة من النوافذ .. يلوح بعضهم بالأيدى المتراخية للآخرين . تظل العيون معلقة تحمل كثيرا من المعانى والمشاعر .. أهل مدينتنا نخلفهم لتواصل الرحلة نحو المجهول ..

* * *

وقف أبى فجأة والقطار يتمهل فى سيره ... أطل من النافذة يدير وجهه الى الأمام .. التفت نحونا قائلا :

ـ كفانا ..وصلنا الى الصعيد الجوانى .. سننزل هنا ..

كان القطار قد توقف ..

حملت امى طفلها على كتفها .. احتضن ابى الحقيبة الكبيرة لتعذر حملها بيده .

عند الباب الذى انفتح توقف لا يستطيع أن يدلى قدميه الى الرصيف ... اسرع أحد الواقفين فحمل عنه الحقيبة حتى نزل ..

فى الطريق الواسع مشينا .. متثاقلى الخطى ... والحقيبة يحملها أبى على كتفه .

كلما امتدت الطريق ثقلت خطواتنا اكثر .. نتساءل : أى حياة سوف نحياها فى هذه المدينة ؟ .. كيف سيكون العيش فى مكان نطرقه للمرة الأولى ؟ .. ما لون الواقع الجديد ؟

تتطلع أبصارنا الى البعيد .. متى نتوقف ؟ فى أى موضع ستكون الاقامة ؟

الطريق ممتدة طويلة .. تبدو بلا نهاية ... كأننا تائهون فى صحراء شاسعة مترامية ...

ينفتح الباب فى حذر .. يترك مواربا بما يكفى أن تظهر خلفه بعودها الممشوق داخل ثوبها الحريرى الأزرق .. النظرة فاتنة تصوبها نحوى فى جلستى قرب الباب جوار مائدة المقهى ... تجتذبنى نظرتها فتلتقى عيوننا .. تبتسم ساحرة ... حينما ينفرج الباب اكثر تتبدى بقوامها الملفوف وساقيها البللوريتين وشبشبها الأحمر اللامع .. تغلق الباب بهوادة لتتوارى خلفه كأنما تريد أن تلهبنى اكثر !

لم أكن ادرى من هى تلك التى تطل على بفتنتها الطاغية ، من البيت ذو الطابقين ، الذى يمتلكه صاحب المقهى ، يشغل مقهاه ، طابقه الأول الأرضى ..

كان ثمة نافذة وحيدة واسعة تقع فى منتصف الطابق الثانى وكانت مغلقة دائما ..

كان الملل ينتابنى فى كشك محطة الأوتوبيس الذى أمارس فيه العمل ناظرا للسيارات ، لم يمض علىّ فى موقعى اكثر من أسبوعين ..

كنت اغادر الكشك لأجلس على المقهى القريب ، وسط الحركة الصاخبة لزبائن المقهى الذين يأتون من الصباح حتى منتصف الليل لشرب الشاى والقهوة ولعب النرد والورق .. وقرقرة الجوزة وسحب الدخان ..

كانت موائد المقهى متناثرة تشغل المساحة الواسعة أمام واجهة البيت المطل على الطريق العام .. بدا ان دخول البيت والخروج منه قاصرا على صاحب المقهى دون غيره ! .. فلا طريق هناك لمدخل البيت وسط الموائد التى تزحم المكان .. كأن من يدخل البيت يعيش فى سجن بلا أبواب !

كان صاحب المقهى يروح ويجئ لخدمة الزبائن .. جاحظ العينين

دميم الملامح .. خشن الطبع .. بذئ اللسان .

* * *

اشارت الى من خلف الباب الموارب لنلتقى ..

من مدينة طلخا الى مدينتى المنصورة ، عبرنا النهر معا فى قارب واحد .

وهى تعانقنى فى شقتى الصغيرة محدودة الأثاث ، مضت تغمغم انها تزوجت من أحدهم لشهرين لم تطق الحياة معه بعدها .. مفضلة العيش فى بيت أخيها صاحب المقهى ..

لم أكن قد سألتها عن موقعها فى ذلك البيت ..

عندما هبط الليل قلت لها :

- هل ستذهبين الآن ؟

- كلا .. قلت لأخى اننى سأبيت الليلة عند أختى هنا .. فى المنصورة ..

وكنت أتأمل وجهها الساحر ، متعجبا كيف حملت بطن أمها ذلك الحسن الطاغى ، بينما حملت ذلك القبح المتمثل فى أخيها !

وقضينا الليل ضجيعين ..

كان جسدها يختلج بالرجفة بين ذراعى .. وشعرها المرسل يطوق وجهى الملتحم بوجهها عندما انسلت منه المشط الذهبى ... وكانت مستسلمة راغبة ونحن متعانقان .. نحترق بلهيب الجسد ..

فى ثالث لقاء أيقنت انها امتلكتنى ظامئا للحب بأنوثتها الطاغية ، وعواطفها الملتهبة ..

- لماذا لا نتزوج ؟

سألتها .. كأنما بغير ارادة انفصل جسدها عنى ، تاركا فجوة

واسعة .. بدا كأنها دوهمت بغتة .. شحب وجهها .. مرتبكة تقول :-
ـ سأكون اسعد امرأة . لو أمكننا الزواج .
كان صوتها متغيرا ..
ـ ماذا تعنين بقولك « لو أمكننا الزواج » .. أهناك عقبة ما ؟
هزت رأسها مؤكدة :
ـ لا ..
ـ متى اذن ؟
كانت تحاول أن يبدو صوتها طبيعيا عندما قالت :
ـ ليس الآن .. فى الوقت المناسب ..
ـ أى وقت تقصدين ؟
فى سرعة كأنما تريدانهاء الموقف :
ـ فيما بعد سأقول لك .. !
كانت وديعة رقيقة .. عذبة خلابة .. فائرة الأنوثة ..

* * *

لثلاثة أيام احتجبت عنى .. لم ينفتح الباب لأراها ..
ضقت بعدها صبرا باحتمال الشوق الجارف والحيرة القاتلة ..
فى مقهاه ذهبت الى أخيها أفاتحه ملحا فى أمر زواجى منها ..
ـ ممن تقصد ؟
ـ أختك ..
فى دهشة ردد محملقا فى وجهى :
ـ أختى ؟ ! أى أخت ؟ !
انقلبت لهجته متهكمة :
ـ أيكون لى أخت ولا أدرى !؟
بينما أحملق ذاهلا .. تبدلت سحنة الرجل كأنما انتبه لشئ ..

رماني مستريبا بنظرة دموية :
- من قال لك هذا ؟!
خرست لا أنطق .. فيما برقت الحقيقة لعيني ... اخترق صدرى نصلها الوحشى ..
كدت اتساقط متهاويا ...

متى تحين الساعة

قلت :

ـ حلمت ليلة الأمس أنى أموت ..

وجمت ابنتى للحظة ثم رفت على شفتيها ابتسامة وقالت :

ـ أفسره لك ! .. سيطول عمرك حتى مائتا عام !

لم أبتسم لكلامها .. حدقت نحوها بعمق ..

قلت :

ـ اشتريت منذ يومين مقبرة ..

اغتم وجه ابنتى ورددت :

ـ الهى لا يفتح بابها أبدا !

كنا فى الصباح .

لم أقل لابنتى انى كنت محمولا فى نعش .. والمقبرة بعينها تراءت لعينى فاغرة فاها .. تنتظرنى .. وجدتنى أقف أمامها محدقا : أين اللافتة الرخامية التى اشتريتها لأضعها على صدرها ؟

ظلت المقبرة تنادينى .. ترصدنى .. تترصدنى، ترتقب ذهابى إليها لتضمنى فى جوفها .. كأنى بامتلاكها اسلمت نفسى لواقع مقبض يبغضه الأحياء بلا استثناء .. كأنى حصرت نفسى فى دائرة النهاية .. فما كانت صورة المقابر تتراءى لعينى قبلا سوى فى القليل النادر .

* * *

قلت لابنتى :

ـ مضت الشهور وطال الزمن .. ألم يحن لوقت لتعودى الى زوجك ؟

اخفضت رأسها صامتة ..

* * *

انفتح باب الحجرة ... دخل وعينه عليّ فى فراشى لم أنم بعد ..
هتفت بدهشة أخفى توجسى :

- كيف دخلت ؟ .. ما الذى جاء بك هنا ؟

خطا نحو الفراش .. توقف على بعد خطوتين :

- جئت لنتحاسب .. تقف بيننا .. تمنعها من معاشرة زوجها .. لا تريدها أن تعود الى بيتنا ..

- لا تستحقها .. أردتك أن تعيش حياة الوحدة وقسوتها .. لتعرف قيمتها ..

- تبرر استبقاؤها معك لتهرب من وحدتك .. أنانى ! .. سأقتلك لأستعيدها !

- هل أنت واع لما تقوله !

اخرج يده من جيبه :

- هذا يجيبك !

فيما احملق فى السلاح مرتعبا .. انطلق المقذوف النارى . لكنه أخطأنى واستقر خلفى فى الوسادة التى اندفع من جوفها خيط من الدخان .

صحوت مفزوعا ..

فى الصباح أسرعت متخذا طريقى صوب المقابر .. نزعت ضرسا عند الطبيب مساء الأمس وعانيت الألم .. نفقد شيئا من الجسد لا يعود اليه ثانية !

سوف تعود الى بيتها يوما قرب أو بعد ..لأعيش حياة الوحدة

بعدها من جديد ..

سمعت انينى !

كل يوم يذهب منى وهى معى .. لن يعود مثله حين تذهب ..

وقفت هناك عند المقبرة .. متى تحين الساعة ..

ثمة شئ لم أعده لأضعه على صدرها .. اللافتة الرخامية التى تحمل اسمى . اسم الراحل .. تلك التى نسيتها .

كنا نراها تهبط منحدر شارع البحر تحمل الأوانى النحاسية .. تتجه نحونا بينما نجلس على شاطئ النهر الصخرى نرتدى لباس البحر .. تضع الأوانى على الشاطئ بالقرب منا وتجلس إلى جانبها على حافة الشاطئ .. تخلع شبشبها .. تمد قدمها فى الماء مرتكزة على أحد الصخور المتراصة لحماية الشاطئ من التآكل .. ساقاها ملفوفتان .. وذراعيها اللتان شمرت أكمامهما يضوى بياضهما تحت الشمس .. تبدأ فى غسل الأوانى :

كانوا خمسة وكنت سادسهم ..

محرم الخراط .. مرشدى المنجد .. كنانى الأستورجى .. حمام طباخ بيوت الأسر الغنية .. بدره عامل مسبك الزهر ..

نظر مرشدى ناحية المرأة وقال :

- تغسل الحلل فى النيل .. ليس فى بيتهم ماء بالتأكيد ..

قال بدره :

- كثير من بيوت الفقراء بلا ماء ..

عقب محرم .

- ولا كهرباء ..

كنت أنزل النهر فى جوارهم ، أعوم حذاء الشاطئ لا أتجاوز حتى أكتفى .. ثم أخرج من الماء لأجلس على صخور الشاطئ أرقبهم يعبرون النهر إلى شاطئ طلخا المقابل ..

كانوا ينادوننى :

- ولد ياتلميذ !

وليس باسمى الذى يعرفونه ..

أكثرهم اهتماما بى كان محرم سمح الوجه الذى كان يغرينى

مشجعا بعبور النهر مثلهم بدلا من الاكتفاء بالعوم جنب الشاطئ ..

يوم عبرت النهر ومحرم فى جوارى يعوم بمهارة ، بدأت تنمو فى داخلى مشاعر الصداقة .. برغم فارق السن بينى وبينه .. وزاد تعلقى بصداقته حين عرفت انه تعلم مهنة الخراطة فى مدرسة الصناعات التى يحمل دبلومها ..

كان يرافقنى فى طريقى إلى بيتنا ... نخترق الشارع الضيق الذى يقع على ناصية فندق وندسور المطل على شارع البحر .. نختصر الطريق حتى شارع السكة القديمة ليتركنى مواصلا سيره يمينا بينما اتجه شمالا إلى حى ميت حدر ..

عرفوا اسم المرأة ...

ذهبوا إلى بيتها ..

فى كل يوم كان واحدا منهم يتبعها إلى هناك بدعوة صامتة منها .. يعود ليحدث رفاقه عن متعة الالتقاء بها !.. يقول انها صغيرة السن لا تزال «بخيرها» ، لم تستهلك كنساء «الخبيزة»[1] .

قال بدره :

- أنا أول شخص ذهب معها .. كنت أظنها عذراء لصغر سنها ..

تساءل كنانى :

- هل ستستمر أسمهان على هذا المنوال فى هذا الطريق ؟

قال مرشدى :

- خسارة لو تغيرت ظروف حياتها أو تزوجت .. سنفقدها !

نهرهم محرم :

- تتمنون ان تستمر المرأة فى العيش الحرام من أجل رغباتكم ؟!

قال حمام :

---

(١) بيوت البغاء . كان يطلق عليها هذا الاسم فى مدينتنا المنصورة .

- وماذا فى ذلك ! .. الست معنا .. المهم أننا نجمع بين متعتين فى اليوم الواحد .. السباحة وأسمهان !

اضاف كنانى مؤمّنا :

- نخرج من الماء فنجدها فى انتظارنا !

- أنانيون !

* * *

هبط حمام منحدر شارع البحر متجها نحونا .. كنا نرتدى ثيابنا لنغادر الشاطئ .. قال عابس الوجه قلقا :

- عندها سيلان ..

- أسمهان ؟

نطق بها مرشدى .. كان يعرف ان حمام قادم من عندها ..

سأل محرم فى قلق :

- من قال لك ؟

- بان على وجهها .. أعرف أعراضه .. رأيت ابن أسرة كنت أطبخ لها يمرض به ..

- بنت الكاااالب ..

قالها بدره حانقا ..

دمدم مرشدى ..

- المجرمة !

هدر كنانى :

- الملعونة !

تساءل محرم فى قلق يتزايد :

- من اين جاءت بهذا المرض ؟

عاد حمام يقول :

ـ ليتنى ما ذهبت إليها !

دمدم كنانى :

ـ من اية داهية جاءت هذه الكلبة !

قال محرم :

ـ المهم الآن أن نبتعد عن هذه المرأة ! .. نتجاهلها عندما تجئ هنا .. كأنها غير موجودة !

* * *

خلف فندق وندسور فى الشارع المظلم بينما كنت فى طريقى إلى البيت استوقفنى صوت يردد :

ـ هس .. هس ..

التفت لأجد أسمهان تقف خلف قضبان شباك واطئ .. بينما اضطربت همست :

ـ اقترب !

بدافع من الفضول دنوت منها .. ارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة :

ـ آسفة .. لا أعرف أسمك لأناديك به .

أردفت :

ـ أراك بينهم هناك تعوم معهم .. أنت الوحيد هناك الذى لم يكلمنى .. طبعا لصغر سنك ! .. هل تقول لى ما اسمك ؟!

ذكرت لها اسمى ..

قالت :

ـ هذا بيتنا .. اراك كثيرا تمر من هذا الطريق .. لا أدرى لماذا أشعر بالراحة عندما أراك !

ظللت أنظر إلى وجهها مطبق الفم ..
- هل تمانع ان نتصاحب !
قبل أن أجيب اردفت :
- طبعا أنت تسمعهم يتكلمون عنى ! .. أليس كذلك ؟
لم أجد جوابا ..
قالت :
- عندما تزورنى سأكلمك عن نفسى !.. اذهب الآن .. لن أوقفك أكثر من ذلك !
قبل ان أستدير لأنصرف قالت :
- هل ستجيئنى غدا فى العصر ؟ .. سأنتظرك !
سرت لا أعرف ماذا تريد من زيارتى لها !

* * *

داخل حجرة رطبة معتمة ساعة العصر ، جلست على كرسى وحيد متهالك ... فى يدى ثمرة جوافة اعطتها لى اسمهان .. بينما تحتفظ لى بثمرة ثانية فى طبق صغير من الصاج أمسكت به فى حجرها .. فليس ثمة شيء تضعه عليه ..

جدتها كانت تجلس منزوية فى ركن الحجرة على حصيرة قديمة .. نهضت عندما دخلت متجهة صوب باب الحجرة الخلفى تتحسس طريقها .. ادركت أنها عمياء ..
- لماذا لا تأكل ؟
قلبت الثمرة فى يدى حرجا :
- شبعان الآن !
ابتسمت :
- كلا .. أنت مكسوف !

اغضيت حين راحت تتأملني حتى لا تلتقي عيناى بعينيها .. فيما كان أحساس بالشفقة عليها يتملكني منذ دخلت الحجرة ..

خلفي كان ثمة فرشة ممتدة على الأرض جنب الحائط ووسادة صغيرة ..

- لم أعد أذهب إلى هناك !

كأنها تستشعر موقفهم ! .. كأنما تحس بمقاطعتهم لها !

- بيتنا كما ترى قرب الشاطئ ... كنت أراهم كثيرا ينزلون النهر .. استسهلت الذهاب إلى هناك ..

تنزل في الضحى إلى الشاطئ متعللة بغسل الأواني رغم نظافتها من أثر الطبخ الذى لا تمارسه أصلا لضيق الحال !.. تنشر هناك الابتسامات ولفتات الأغراء والغواية لتلتقط أحدهم ... يذهب إليها أحد الخمسة في اندفاع الشباب .. تومئ إليه بابتسامة تدير رأسه .. يسرع كالمجنون يرتدى ثيابه بجسمه المبتل .. يتبعها إلى بيتها .. تحصل على عشرة قروش تجلب بها الطعام لها ولجدتها ..

تتكلم ببساطة يشوبها الخجل والألم ..

أحستني اقترب منها لاختيارها لي وحدي ، تخصني بالكشف عن حقيقة حالها ..

- هل يمكن أن أجد طريقا آخر لكسب النقود !

ارتبكت لسؤالها ..

لم أملك إلا أن أقول راثيا لها :

- أتسمينها نقودا تلك العشرة قروش !

اغتصبت ابتسامة تدارى خجلها :

- أنت «تحسبها» بالنسبة لظروفك التي تعيشها .. أما نحن فالقروش العشرة تكفى لإشباعنا !

وددت أن أسمع منها شيئا عن الماضى .. أمها .. أبوها .. اخوتها .. اليس لها أخوة .. أخوات .. هل كانوا حولها وذهبوا ؟ هل هى أصلا من مدينة المنصورة .. أم وافدة إليها ؟

لماذا سقطت فى المستنقع وهى بعد فى بدايات الشباب ؟

هل خدعها أحدهم ثم لفظها ؟ .. من أين كانت تجئ بالطعام لها ولجدتها الضريرة ؟ .. وهذا الذى سمعته المسمى « سيلان » .. من أين جاءتها عدواه ! .. ألا يدل على أنها مارست البغاء قبل «زبائن الشاطئ؟!» .. فليس منهم بالتأكيد - وكلهم أصحاء يمارسون هواية السباحة بعنفوان الشباب - من أصيب بهذا المرض !

عندما خطوت صوب الباب لأنصرف وجدتها تمسك بيدى .. ونظرة عينيها تحيرنى :

- هل تقبل أن تكون أخى ؟!

اهتززت للكلمة .. صوتها يحمل نبرة الإنكسار والتمني .. منفعلا قلت يغالبنى الأسى :

- أنت أختى ..

قبلت جبيتى .. غالبت ارتعاشة الصبا لحرارة الشفتين..

بعد أيام وجدتها تجلس أمام قصعة ملأى بالفول المنبت .. تبيعه على ناصية شارع السكة القديمة القريب من بيتنا ..

ابتسمت لى قبل أن أقول لها شيئاً :

- ستجدنى فى البيت ساعة العصر .. تعال ..

كنا نتشارك أحيانا طعام الشطائر الرخيصة التى اشتريها بمصروفى اليومى .. وكانت تعطى منها لجدتها .. تبتسم لى وهى تزدرد اللقمة كأنها تشكرنى !.. ازداد عطفا عليها مع استصغارى

لنفسى التى لا تملك غير العطاء القليل الزهيد ..

أجلستنى على الكرسى جوار شباك الحجرة لأستقبل تيار الهواء القادم من شارع البحر .. جلست عند قدمى ترفع وجهها وتتكلم :

ـ أحلم كثيرا فى هذه الأيام !.. لا أفرق بين الحلم والحقيقة !.. بين الخيال والواقع .. أحس إنى غريبة مقطوعة الجذور ..

صمتت ثم اردفت بلهجة أسيفة :

ـ سوف تشغلك المدرسة بعد شهور الإجازة عنى .. هل يمكن أن اراك بعد إنتهاء اليوم المدرسى ؟

أكدت لها أننى باستطاعتى ذلك ..

* * *

تساقط شعر رأسها الفاحم .. تبعته أهدابها التى كانت تتميز بطولها الآسر ..

لم أستطع بقصر خبرتى أن أدرك كنه ذلك المرض الذى يفعل فعله معها !

كانت جدتها لا تعرف شيئا .. لم تشعرها بتدهور حالتها ..

حجبت نفسها داخل البيت لا تجلس عند قصعة الفول .. حتى لا تواجه النظرات التى تتركز على وجهها وتخترق الوشاح القديم الذى يخفى شعر رأسها المتساقط ..

على فرشتها الصغيرة كانت ترقد ذابلة الوجه بارزة الوجنتين خابية العينين .. كأنما ماتت فيها القدرة على الحياة .. بينما كان ثمة شىء يطفو على وجهها لم أستطع تحديده .. وكان التهاب جفنيها باديا .. وتورم عينيها ..

أ هكذا .. انحدار سريع ؟!

كنت أقبل جبينها محتبس الصوت ..

عشت حولها مضطرب النفس .. أغوص تحت الأرض تملؤنى التعاسة .. اغرق فى طوفان الأسى والمرارة .. يتملكنى أحساس مرير بالعجز .. لا أملك غير دموع صبى لا حيلة له ..

* * *

فيما كنت فى جوارها ذات ضحى نظرت إلى وجهى طويلا .. اطبقت عينيها لحظة وفتحتهما .. زحفت يدها المعروقة فى ضعف وأمسكت يدى .. فى وهن قالت :

ـ سأموت ..

انتفضت من جوارها هلعا ... خفت عليها .. تلقفتنى دوامة الحيرة والعجز .. ماذا يمكن أن أفعل ؟!

مسرعا نزلت إلى الشاطئ .. كان محرم يجلس بلباس البحر .. لم ينزل النهر بعد .. بينما كان الآخرون يسبحون تجاه الشاطئ الآخر ..

جلست متخاذلا متهيبا جوار محرم أحبس الدموع .. احسستنى اتكلم كمن يعوى :

ـ أسمهان تموت .. لا أستطيع أن أفعل لأجلها شيئا ..

التفت إلى بحدة .. نهرنى فى غضب :

ـ لا شأن لنا بها !.. ألم يكفنا أنها كانت ستصيبنا بمرضها !

لم يسأل ما علاقتى بها ..

ـ لا أحد لها .. غير جدتها العمياء التى لا تقدر على فعل شىء ..

قال ساخطا :

ـ تمكن منها المرض الذى لم تعالجه طبعا ..

قلت متوسلا :

ـ أفعلوا شيئا من أجلها ..

ـ ما لنا نحن !.. أليس هناك غيرنا ..

طأطأت رأسي يائسا ..

مال محرم برأسه على جانب وجهي .. رأى الدموع في عيني ..

لانت لهجته :

ـ اتعز عليك إلى هذا الحد ! .. ولد طيب أنت !

نهض واقفا .. اتجه وجهه عبر النهر .. كور راحتيه حول فمه ..

زعق ينادى رفاقه باسمائهم واحدا واحدا ..

تجمعوا عند الشباك الواطئ ..

وقفت تتعلق عيناى بهم ..

اترقب واجف القلب ..

أنتظر ماذا سيفعلون ..

- جئت لأقيم معك .. لم يعد لى مكان هناك ..

لم يقل « معكما » .. هل خرج من حسابه الولد الراقد فى حجرته ينتظر النهاية .. هل نبذه وراء ظهره ليستقبل الولد المنتظر هناك ؟!

انطرح واهنا على السرير الذى كان ينام عليه فى جوار أمى ..

- ماذا أخذت من هناك ..!

لفظها فى تعاسة ..

كان هزيلا شاحبا .. أهو أبى الذى أعرفه ؟!

استرسل فى الكلام ، كأنه يريد أن يسمعنى شكواه .

انقلب بجسده النحيل مستقبلا بوجهه الحائط :

- انتظرت أن يجئ الولد .. جاءت لى ببنتين .. ستجئ بالثالثة التى تحملها فى بطنها الآن ..

كان الجلباب الأبيض منحسر عن ساقيه .. فى بطن احداها أثر حرق لامع مستطيل غائر ، لم أشهده قبلا ..

وددت أن أسأل .. لكن الحاجز يحبس فى صدرى السؤال .. سبع سنوات غابها .. وكان ينوى أن يغيب لآخر العمر .. كأنه ليس ثمة من يحتاج إليه ويشتاق لرؤيته : الولد الذى يزحف نحو يومه الأخير ..

- تخلت عنى حين مرضت .. تركت لها البيت بكل ما فيه ..

تأوه :

- المرض يشتد بى .. ولا أجد له علاجا ..

سمعت صوت الولد ينادينى ..

سألنى أبى :

- ما حاله ؟

يهبط سريعا على المنحدر .. فبماذا أجيب ؟

وجدتني أشكو أقول ... فما كان هناك أحد بجانب فتاة ضعيفة طوال السنوات :

ـ أليست مأساة أن يولد ليموت صبيا .. كما مات أخوه في عمر الصبا !

بدا كأنما يكلم الحائط قائلا :

ـ كلنا نولد لنموت .. ومع ذلك نحرص على أن نعيش عمرا أطول .. مهزلة اننا نتشبث بالحياة كأنما نريد أن نبتعد عن الموت .. بينما الموت يقترب منا أكثر مع كل يوم يمر !

حول وجهه نحوى ونظر إلى كأنما تذكر شيئا :

ـ في الخامسة والثلاثين أنت الآن .. ولم تتزوجى .. ألا يكفيك !

ـ وأتركه لمن ؟

حدق في وجهي وقال :

ـ لكنك انتظرت طويلا .. ألا تتعجلين موته ؟!

بوغت بعبارته .. تملكني الألم ..

أيريد أن يحملني قسما من انانيته !

ـ الم ترهقي وتنهكي لرعايته .. وخدمته الشاقة في مثل حالته ..

ـ لكنه أخي !

تحت الحاحه المؤثر احضرت الكرسي ذى العجلات بديلا لساقيه الهشتين .. يدور به في انحاء الشقة الواسعة .. يفتر ثغره عن ابتسامة راضية .. تتسع الابتسامة كلما طوف حول الأشياء ، يرنو بخياله صوب افق بعيد .. يحلم ..

منذ أيام قدمت له فطوره عندما صحا من النوم .. لم يمد إليه يده .. مضى يحدق أمامه متشوفا .. حالما .. فجأة التفت قائلا :

ـ أريد ان تخرجي بي إلى السوق الكبير المزدحم .. أقضى النهار

كله أأكل الثلاث وجبات في المطعم هناك .. ولا أعود إلا بعد العشاء ..

اعترتني الدهشة ممتزجة بالعطف والاشفاق .. والألم .. حين لذت بالصمت ، خاف ألا احقق رغبته .. أسرع يقول في رجاء :

- يوم واحد .. واحد فقط .. الست سأموت .. لماذا لا أفعل ما تشتهيه نفسي !

بكى قلبي ..

نظرت إلى وجهه متأملة .. بدالي وجها جديدا على .. كأني لا أراه في الليل والنهار لا يفارقني ..

لا أملك سوى الاذعان لمشيئته ..

انتابني أحساس بالعجز .. كيف أنزل به من الطابق الثالث وأصعد به ؟

لكني سأفعل .. لابد أن أفعل ..

- تعيشين الألم والعناء .. وقسوة الواقع .. ما الذى يضطرك إلى هذا .. ما الذى يجبرك !

هل أقول له : لم أجدك ياأبى .. ولم أجد أمي .. إلى غيرها ذهبت وهجرت من أجل الولد الذى لا يموت .. كما تموت الذكور التي تلدها أمي للمرض الغامض في دمها .. تركتها وحدها تقاسي العذاب مع الولد الآخر ، الذى يذوى ويضمر كل يوم أمام عينيها ، ليفارق في النهاية المحتومة مثل أخيه الأكبر الذى سبقه .. فارقتها كأنما لم يكفك حرقة قلبها على الابن المفقود .. وحياتها مع الآخر المترعة بالأحزان .. وترقب النهاية .. ماتت بالقهر العاطفي ومعايرتك لها بأنها تنجب الذكور الذين يموتون في عمر الصبا .. وتريدني أن أهرب لأنجو بنفسي .. لأعيش حياتي .. وهو ؟ .. من سيبقى له ؟ .. أنت لا

تريده .. هل أقول لك إنه يحبك رغم الغياب .. يجلس كما كنت تجلس .. يأكل كما كنت تأكل .. يحاول أن يمشى مشيتك .. لكن تخونه ساقاه ..

* * *

خارجة كنت من حجرتى حين سمعت رنين الهاتف الرابض جوارا أبى متواصلا .. كان يجلس فى السرير متقرفصا يشد ذراعيه حول ركبتيه .. تراءى لى شحوبه يزيد عن الأمس .. وقواه تتناقص يوما بعد يوم .. مد يده والتقط بوق الهاتف ليحادث شخصا :

- ولد ؟!

- ....

- لا أريد أن أراه !

- ....

- سميه كما تشائين !

ارخى يده إلى جانبه ممسكة بالبوق .. بدا أنها تتشبث به لا تريد تركه ! .. بعد لحظة أفلته .. مالت رأسه على الوسادة .. فرد جسمه بطوله على السرير .. قبل أن تسكن حركته أطلق صوتا واهنا يشبه الأنة ..

انكفأت على حافة السرير يرتجف جسدى كله بالدموع دون صوت ..

مع الوجع الفاجع أتانى الصوت المتهافت من الحجرة المفتوحة .. ينادى ..

حسنية

حين رآها كان في يومه الثالث لتسلمه العمل ، بعد تعطل ثلاث سنوات ، موظفا صغيرا في مصلحة الشهر العقارى .. التى انشئت بدلا من المحاكم الشرعية لتوثيق عقود البيع والشراء والمحررات الرسمية ..

كانت برفقة أمها وأختها الصغرى .. جئن لتوثيق عقد بيع صادر من الأم لإبنتيها ..

كانت المرأة تبتسم دائما دون داع .. فتكشف عن سنها الذهبية .. ترتدى فستانا من القطيفة السوداء .. وتغطى رأسها بمنديل كبير منقوش عقدته حول جبينها ..

سألها عن حى « كفر الغجر » المدون فى عقد البيع ، أين مكانه ؟.. ولم يكن قد سمع به ..

اتسعت ابتسامتها وقالت باندهاش :

- كفر الغجر !.. ألا تعرفه !.. ألست من المنصورة !

تدخلت ابنتها الكبرى موضحة :

- الحى المجاور للحسينية ..

التقت عيناه بعينها الباسمتين .. وجد نفسه مشدودا للنظر إلى وجهها .. مبهورا بجمال تقاطيعه . جذبه إليها أكثر مظهر الحياء والارتباك كلما التقت عيناه بعينها ..

عرف أن اسمها حسنيه .. واسم أختها صبحيه ..

* * *

التقيا مرات ..

كانت متحفظة فى لقاءاتها به .. تشير عليه أن يمشيا فقط فى

شـارع البـحـر الخـالى من الناس فى المـدينة الصـغيـرة .. أو يسـتـقـلا الأوتوبيس الداخلى ليـذهبـا إلى حـديقـة توريل فى أول المـدينة .. أو حديقة شجرة الدر فى آخرها ..

كان يرى بعد أن تعددت اللقاءات فى عينيها ما تود البوح به ..

أدرك أنها الرغبة فى مكاشفته فى أمر الزواج .. لكن الحياء يمنعها .. كانت فى تقديره محقه ، كأية فتاة تريد أن ترسو على بر الآمان ..

كان موقنا أنها لا تنظر إليـه كإنسـان يلهو فى عـلاقته بها .. فـهى مؤكد تدرك كم يحبها ..

كان يعرف باحساسه إنها تقدر ظروفه الصعبة .. من أجل ذلك فهى لا تتعجله ..

فى طريقه إلى البيت كان يمر بميدان الموافى كل يوم .. هناك كان يرى أمها التى تختار نشاطها فى بيع القماش مكانا فى طرف الميدان على ناصية سوق الخواجات ، الذى يعج بدكاكين الاقمشة وغيرها .. تفترش الأرض أمام بضاعتها .. تطرح ملاءتها اللف خلف ظهرها .. والمنديل الملون المنقوش المعقود على جبينها .. تبتسم للمارين قربها .. تدعوهم للشراء .. تبيع قطع القماش المتنوعة التى تأتى بها من مدينة المحلة القريبة من المنصورة ..

قالت له حسنية أن امها تحب ان تنادى « أم سعيد » .. لاعتزازها بابنها الوحيد الذى مات فى صباه .

تردد له دائما انها مستاءة لتحمل أمها اعالتها .. وتتعجل الالتحاق بعمل يؤهلها له شهادة التربية النسوية التى تحملها .

قال يمنى نفسه :

ـ ربما تزوجت قبل ذلك !

احمر وجهها .. خفق قلبه .

كانت مرهفة الحس رقيقة الشعور .. تتعامل مع الأشياء بحساسية مفرطة .

كان ينوى التقدم إلى أمها ليفاتحها فى أمر زواجهما .. وآثر الا يخبرها بما انتواه لتكون مفاجأة لها .

بدأ لثلاثة أيام يجوب ميدان الموافى الواسع محوما حول الأم التى تقبع أمام فرشتها .

كان يلحظ خلال الأيام الثلاثة توقف العديد من الرجال عند الفرشة ، يقلبون فى قطع القماش وينصرفون دون شراء شئ .

بينما كان ثمة نسوة فقط يشترين بعض القطع .

كان مهموما بها جس انها لن تقبله زوجا لابنتها . وحاله ميئوس منه : موظف صغير حديث العهد بالوظيفة .. لكم عام سيحتاجه لايجاد شقة . وتأثيث بيت . وتكلفة الاعاشة اليومية .. كلها أشياء صعبة التحقيق لشاب ليس له من مورد غير عائد الوظيفة القليل .. فواقعه المعيشى لا يبشر بتغير الى أفضل .

كان الميدان على اتساعه يضيق به .. يحيطه ضباب موحش . ينسدل أمام عينيه ستارا كثيف من اليأس .

* * *

سمع طرقا على باب حجرته .. رد من فراشه :

- من ؟

كان صوته ضعيفا لمرضه ..

بدا أن الطارق لم يسمعه .. عاد يطرق الباب ..

نهض متخاذل الساقين واقترب من الباب :

- من ؟

ـ حسنية !

فى سرعة تملؤها الدهشة الممتزجة بالفرحة ، فتح الباب ووقف أمامها مبتسما مرحبا ..

دخلت ومن خلفها أختها .. قالت :

ـ اختى صبحية .. جاءت لزيارتك ..

سلمت عليه صبحية فى خجل .. استأذنها متجها الى الفراش :

ـ معذرة .. لا استطيع الوقوف .

فى اشفاق قالت حسنية :

ـ الى هذا الحد ؟

جلست صبحية على كرسى مجاور للباب .. فى حين تقدمت حسنية من فراشه .

كان لا يزال فى دهشته وفرحته برؤيتها .

ـ ماذا بك ؟ .. السلامة لك .

قال يطمئنها انها نزلة شعبية تمكنت منه وألزمته الفراش .

كان مستغربا زيارتها له فى حجرته .. رغم تحفظها الذى يعرفه .

قالت :

ـ لم استطع منع نفسى من زيارتك . بعد سبعة أيام لم أرك فيها !

فى ابتهاج ردد كأنما يمازح :

ـ هل عددتيها ؟!

ـ قلقت عليك !

ـ أوحشتك ؟!

بصوت خافت قالها كيلا تسمعه أختها .

ـ لكن كيف عرفت عنوانى ؟

ابتسمت فى حياء :

ـ سألت زميلك الذى يجلس بجوارك فى العمل .

أردفت مشفقة :

ـ اعرف ان النزلة الشعبية تنقلب فى بعض الحالات الى التهاب رئوى .. لابد من الراحة .

طمأنها انه سيتعافى خلال أيام قليلة .

راحت تسأل :

ـ هل تأخذ الدواء ؟ .. هل أنت وحدك ؟ .. الا تحتاج الى من يرعاك ؟ .. أين أمك التى حدثتنى عنها ؟

ترادفت أسئلتها متلاحقة .

بعد صمت قالت يرد على سؤالها الأخير :

ـ أمى تبيع الفاكهة .. على ناصية الشارع ..

عاد الى صمته ..

أمعنت النظر فى وجهه :

ـ هل يخجلك ان امك بائعة فاكهة ؟

ـ لم اذكر لك شيئا عنها قبل الآن . كنت ستعرفين فيما بعد !

تصنع ابتسامة :

ـ أمك أرقى من أمى .. تبيع القماش .

اشاحت بعينيها .. فيما يشبه الهمس قالت كأنما تخاطب شخصا آخر :

ـ من ادراك أنها أرقى !

هم أن يسألها ماذا تعنى ..

لكنها عادت بعينيها مبتسمة :

ـ ساتركك الآن .. قبل ان تعود أمى ..

مالت عليه وقبلته فى خده .. حولت عينيها فى خجل قبل أن تلتقى

بعينيه ..
أسرعت صوب الباب وغادرت مهرولة ..

* * *

ظل يحوم كما اعتاد حول ام سعيد .. لم يستطع التوقف عن هذه العادة التى اصبحت من طقوسة اليومية !

يتساءل فى نفسه : ما الفائدة من هذا كله ؟ .. لماذا يعيش الوهم ؟

فى عصر يوم رآها تلملم بضاعتها وتصرها فى صرر عديدة ..
أودعتها دكان بائع الخردوات المجاور لها ..

بدأت طريق العودة الى بيتها مخترقة سوق الخواجات بطرقاته الضيقة ..

وجد نفسه يتبعها .. تسوقه رغبة عارمة دهش لها .. معتزما زيارتها فى بيتها .. ليفاتحها فى أمر زواجه ..

لكنه عندما اقترب من حى كفر الغجر تراجعت خطواته يدهمه واقع حياته .

توقف مكتفيا بالنظر خلفها عبر الشارع الممتد . الذى تقوم على جانبه المقابر .. تطرح الملاءة عند باب بيتها ذو الطابقين خلف ظهرها .. وتدلف الى الداخل .

* * *

كان على موعد مع حسنية فى اليوم التالى تحت كوبرى السكة الحديد عقب انصرافه من العمل .. عابرا شارع البحر المجاور للمصلحة مارا بمكتبة البلدية المقامة على شط النهر .. وثمة قارب ينتظرهما حذاء الشاطئ ، ليتنزها فى النيل بعيدا عن العيون .

مضت الساعات دون ان تأتى .

لم يستطع ان يمنع نفسه من السير فى طريق بيتها لعله يلتقى بها . .

فى الطريق سمع بالواقعة .

اطبقوا على أم سعيد فى جلستها أمام فرشتها . . اخرجوا لفائف المخدرات من تحت فروة الخروف التى تفرش عليها أقمشتها .

أدرك باحساسه ان حسنية كانت تعرف نشاط امها التى تمارسه من زمن فى حرص وحذر . . طرقت أذنيه عبارتها يوم زيارتها له .

تسارعت قدماه فى الطريق . .

هناك كانت صبحية تطل من باب البيت بادية الشحوب والأسى ووقع المفاجأة ! . . ترسل بصرها عبر الشارع . . كانما تنتظر أحدا ما .

بقلب واجف سألها عن حسنية .

نفرت دموع عينيها الذابلتين من أثر البكاء الطويل :

- لا أعرف أين ذهبت منذ قبضوا على أمى .

ادرك انكسار الغائبة وخزيها .

عرف أنها لن تعود . .

« قد نفقد كائنا واحدا
فيقفر العلم بأسره »
لامارتين

« فقد الأحبة غربة »
علي بن ابي اطلب

صيف الحزن

كنت انظر الى وجهها فى المرآة العاكسة أمامى ، والسيارة مسرعة على الطريق الخالى .

فى المقعد الخلفى كانت تجلس بين اختيها اللتان تصحبانها الى المطار صامتة تتجه بعينيها الى مسار الطريق ...

الحزن الدفين فى عينيها لا يريم ... مضى العام الذى غابته فى البلد البعيد ، وعادت بذات الشئ ... كأن عاما لا يكفى لبرء الجرح .

كنا نقترب من المقابر الرابضة على يمين الطريق .. وكنت اخشى أن تلتفت ناحيتها .

والسائق مشدود النظرة أمامه ، وليس ثمة طريق آخر يبعد عن المقابر لنسلكه ...

حانت عودتها بعد إجازة الصيف .

كانت طفلتها الصغيرة ، تجلس على ركبتى فى المقعد الأمامى تحدق فى لاشىء .. وكنت غافلا عنها احدق فى وجه ابنتى المرسوم أمامى على صفحة المرآة .. وقمم المقابر تطالعنى فى سفح الطريق ..

لا صوت للصغيرة الآن .. ساعة ذهابنا الى المقابر فى الصيف الماضى نحتمل جثمان أخيها « غاب عن عينى أمه .. بينما تدور فى النادى الواسع تبحث عنه .. كان هناك غريقا فى حوض الاستحمام» ...

كان الصغيرة تردد « لا ءاتها » طوال الطريق : « لا .. ! لا .. ! »

فى المقعد الخلفى لسيارة جارنا الواسعة كان تجلس صامتة

وعيناها مفتوحتان واسعتان على غير طبيعتهما .. فجأة تململت فى قعدتها كأن اشواكا تخزها : « لا .. ! لا .. ! »

من قاع الحزن تساءلت فى نفسى بدهشة :

- من تخاطب ؟

« لا .. ! لا .. ! »

ما المعنى ؟

أتكون « لا » احتجاجا على الموت الذى لا تدرى شيئا عنه بعد ؟!

حتى عند المقبرة التى افترشت التراب جوارها مهدم القوى غير عابئ بتطاير التراب يضرب وجهى واللحاد يرفع المجاديل الحجرية ، أخذت الصغيرة تدور حولى تردد لاءاتها : « لا .. ! لا .. ! » لتزيد حزن وحدتى !

تحولت عينا ابنتى فجأة الى يمين الطريق مشغوفة النظرة .. تلون وجهها باللهفة الملتاعة .. تعكرت العينان واحتجب السواد خلف غلالة الدموع ...

ثمة وجه آخر يلازم وجهها الماثل أمامى .. وصف المقابر يتوارى خلفنا ... اين غاب الوجه ؟ ... لا يفارقنى وجهه المبتهج يومها :

« ما شاء الله يا جدى ، ما شاء الله ! ... رأيت صورتك واسمك فى الجريدة ونحن فى الطائرة ... ما شاء الله » .. يفرد ذراعيه الصغيرتين عن آخرهما معجبا كانما يحتضننى ! .. ما شاء الله يا صغيرى ! ... آه لو استطعت أن أخبئك ساعتها فى داخلى .. لأبعد عنك الموت !

قبلها جاء الى حجرتى متكدرا :

- انخلعت سنى ..

فى راحته السن كحبة أرز فى حجمها وبياضها .. فتح فمه الصغير

ليـــرينى .. فى الفك الأســـفل بدت نقطة داكنة فى مـــوضع السـن الساقطة.. ربت على كتفه أطمئنه !

خرج يصيح لأمه متوعدا :

ـ اذا لم تتركينى أنزل الشارع لألعب .. سأصعد الى فوق لألعب فى الجنة !

اعتقلت الدهشة لسان امه لغرابة الكلمة ! ... بعد لحظة قالت تسترضيه :

ـ سنذهب الى النادى .

صاح فرحا :

ـ هل سأستحم هناك فى الحمام ؟

بينما مضى يتقافز مبتهجا .. دخلت أمه تعيد على مسامعى عبارته .. تعجب لطفل مثله كيف يقولها ؟!

أكان يستشعر قرب الصعود الى السماء ؟!

* * *

عندما حانت لحظة المغادرة لتقلها الطائرة .. عانقتنى ابنتى طويلا تحبس دموعها لتقول عيناها : « قد لا نلتقى » وتنهمر الدموع...

ما عادت ترى غير الموت ماثلا ..

لم اكن أدرى أن ثمة صداقة ستنشأ بينى وبين الشاب الصغير ، كمسرى الأوتوبيس ... منذ ساعة بدأت معه التحقيق فى مذكرة قدمها أحدهم بشأنه نفى « أبو نازل » وقوع المخالفة المنسوبة إليه بتأخره فى الصباح عن موعد قيام السيارة المعين عليها كمسريا ، كما جاء بالمذكرة .

وأبدى رغبته فى حياء أن يتكلم دون اثبات اقواله فى البداية .

بينما مضى يتحدث عن موقف ناظر المحطة مقدم المذكرة ، كنت أتخيل بعينى الرجل : متداعيا يمشى كأنه يحمل جدارا فوق كتفيه .. حذاء مفتوق .. حزام البنطلون من الدوبار .. قميص لا يبد له طوال الأيام .. طربوش مجعد مثنى عند القمة .. ابناؤه الثلاثة يجيئون اليه من مدراسهم فى مقر عمله ، ربما لطلب حاجة ملحة .. يطول انتظارهم .. لا يتبادل معهم كلاما .. ينصرفون مطرقى الرؤوس .

قال أبو نازل أنه منذ أيام رآه ناظر المحطة يحمل نصف جوال من القمح عند عودته من الخط فى نهاية اليوم .. سأله من أين أتى به .. قال انه اشتراه من احدى القرى لرخص ثمنه .. طلب منه بلهجة آمرة أن يجئ له بمثله عندما يقبض بعد يومين نصف الشهر .. ولم يستجب «أبو نازل» للطلب .

استمر « أبو نازل » يشكو تحرش الناظر به .. فيما كنت لائذا بالصمت أتامل رقة حاله وهزال جسده .

ظل يشكو مشقة العمل : الا يكفيه انه يصحو فى الفجر ليلحق ميعاده .. يدور فى الطاحونة ذهابا وعودة مرات فى اليوم .. ينسحق فى زحام ايام الأسواق وغيرها وسط اجساد الركاب المتلاحمة .. يبيت فى

الأسبوع ثلاث ليال خارج البيت ... ليلة لأمس كان عليه المبيت فى كفر صقر فلم يجد رغيفا فى السوق ليتعشى .

طمأنته بأننى سوف أذيل التحقيق بأقتراح حفظه .. تفاد يالتوقيع الجزاء المادى .. فقد كانت الشركة تعمد فى توقيع الجزاء الى الخصم من الأجور الهزيلة ، التى يحصل عليها العمال .. وذلك كان دأب أصحاب العمل .. كأنما يستكثرون ان ينال العامل المكدود أجره كاملا !

ـ أشكرك .

قالها بعزة نفس جذبتنى اليه .

انصرف يحمل تابلوه التذاكر الخشبى تحت ابطه .. والرغبة تملؤنى أن أستبقيه لا تكلم معه طويلا !

كان واحدا بين قلائل من كمسرية الفرع يحملون شهادة الابتدائية .. لم يجد فرصته لعمل آخر وسط البطالة الطاحنة .

كان له اسلوبه المختلف عن الآخرين وطريقته فى التعامل .

لقيته بعد أيام خارجا ذات ليلة من عيادة طبيب للعيون .. مرافقا جدته العجوز .. سلم على وخاطب جدته ذاكرا اسمى ، ملحقا به الكلمة : « صديقى » .. كأنما يسبق مشاعرى نحوه !

قال :

ـ كنت عند الطبيب لفحص عينى جدتى .

دعوته لركوب الحنطور مع جدته .. لتوصيلهما الى البيت

قال معتذرا :

ـ البيت ليس بعيدا .

اصررت .. أود أن نترافق بعض الوقت !

في الطريق أبدى أسفه لما صار اليه حال جدته .. وشكواها الدائمة من عتامة عينيها .

- كانت تتكسب من عملها كقابلة .. الآن لا تستطيع .. هى الباقية لى من أسرتى !

- لماذا بدلا من تحمل نفقات العيادة الخاصة . لم تذهب الى المستشفى الأميرى ؟

قال فى بساطة :

- هناك لا يعتنون بأمثالنا ! .. حق يحل دور العملية تكون قد عميت !

* * *

اكرههم ... الكلاب !

كان يحكى لى عن مركز صيانة الطائرات الانجليزى .. فى موقعه على الطريق الزراعى بين محطة شاوة المقابلة فى الجانب الآخر عبر خط السكة الحديد وقرب البقلية فى طريق السنبلاوين :

- هل تعرفه ؟

هدير المحركات والمناشير الضخمة ، يسمعه رغم ضجيج السيارة التى يعمل عليها .. تقع عيناه على اجنحة الطائرات وأبوابها وكبائنها المبعثرة على أرض الموقع .. من أين تأتى ؟ .. اتكون هى التى تتساقط فى مكان ما فى الحرب الدائرة بين قوات الحلفاء والألمان والطليان .. هل يعدونها من جديد للعمل ؟ . الجندى الانجليزى يقف دائما على البوابة الواسعة بجسمه الأحمر العارى وبنطلونه الكاكى القصير .. قبل الموقع بأمتار تبطئ السيارة لتعبر قنطرة المجرى المائى الذى يصل بين الترعة المحاذية للطريق ، والأخرى الممتدة بين

الحقول الواسعة تمدها بالمياه .

ينتهز « أبو نازل » الفرصة فيقف على سلم باب السيارة الخلفى ويسدد بصقة فى وجه الجندى . فى وجهه تماما .. يأسف بشدة اذا لم تصب البصقة الهدف ! .. يربد وجه الجندى ويهدر بالشتائم التى لا تصل الى سمع « أبو نازل » غيرانه يرى قبضة الجندى ملوحا خلف السيارة متوعدا . سائق السيارة الذى كان يقف فى السابق على قادوس الطحين قبل أن يعمل سائقا ، يشكو « أبو نازل » لرئيس الفرع ، متخوفا من تعرض سيارته لعساكر الانجليز واصابته بأذى .

ابتسمت قائلا :

- طلب الىّ رئيس الفرع أن أحقق معك بشأن هذا الموضوع !

- لماذا بعد أن نقلونى الى خط المطرية لإبعادى عن خط السنبلاوين !

- لن انفذ هذا الطلب على أى حال .. وبالطبع سينسى الموضوع !

بصق « أبو نازل » وهدر :

- مصاصو الدماء .. الكلاب !

وكان يعنى الانجليز .

* * *

من وقت الآخر كان هناك ضابط انجليزى يجئ فى زيارات مفاجئة لمخزن اطارات السيارة ، التى تصله الأخبار عنها انها مسروقة من المعسكر البريطانى فى مدينة أبو كبير .

كان يحضر فى عربة جيب كاكية اللون يقودها جندى انجليزى .

بقامته الفارهة ووجهه الاحمر وعيناه الزرقاوين والكاب ذو اللونين الأحمر والكاكى ، يدخل الورشة بخطوات واسعة مخترقا الممرات

الضيقة بين السيارات الى مخزن الاطارات . كان اسمه « بيكيت » ، لكن العمال كانوا ينطقونها « البيكيت » . .

كانت وسائل النقل بكافة أنواعها تعانى نقصا هائلا فى اطارات السيارات منذ قامت الحرب . لقصر انتاج المصانع العالمية على المجهود الحربى للقوات المتحاربة.

ولجأ رئيس فرع الشركة بمعاونة مهندس الصيانة ، وبعض السائقين الى الحصول على الاطارات من مخازن معسكر ابو كبير ، أقرب معسكر بريطانى لمدينة المنصورة ، بمساعدة بعض العساكر الانجليز الذين يقبضون الثمن .

فى كل زيارة مفاجئة للضابط الانجليزى ، كان يتوقف صامتا أمام كومة الاطارات التى كانوا يعمدون الى ازالة حروفها البارزة حول الاطار بالحديد المحمى . . لا يتكلم . . لكنه يهز رأسه مستريبا . . يستدير بوجهه العابس لينصرف . . يسرع إليه من مكتبه رئيس الفرع القصير القامة يعرج برجلة المعطوبة . . يحييه بابتسامة مرحبة . يدعوه الى مكتبه بلهجة لطيفة ، ليشرب القهوة . . يدرك الضابط ماوراء الدعوة.

يخرج من المكتب بعد فترة قصيرة منفرج الأسارير . . فى جيب سترته الكاكى مظروف النقود .

وكان « أبو نازل » حين يتصادف وجوده فى موقف السيارات المواجه للورشة ، يرقب ما يحدث مشتعلا بالغيظ . يبصق خلف الضابط بينما يتجه الى عربة الجيب :

ـ كلب !

يردد متهكما :

ـ عساكر لصوص فى المعسكر هناك وضابط مرتشى هنا .. الكلاب !

بعد فترة خفت حركة المسروقات بعض الشيء .. عندما أقامت الشركة مصنعا مجاورا لفرعها فى شبرا البلد . يصنع شرائح المطاط الدائرية السميكة .. ويثبتها حول الإطارات المتآكلة لتقويتها .. وكان يحدث أثناء السير أن تنفصل تلك الشرائح ـ خاصة فى أشهر الصيف الحارة ـ عن الإطار ، ويبقى جزء منها معلق به .. يصدر اصطفاقه بالارض صوتا ينتبه له السائق فيوقف السيارة على جانب الطريق لتظل معطلة حتى يأتى عامل الكاوتشوك باطار آخر . وكان يخفف قليلا من تعطل السيارات عدم رصف الطرق الترابية بالاسفلت الساخن .

* * *

بدأ «أبو نازل» يقف فى جوار مضخة الوقود على يمين باب الورشة .. يحمل دفتر يدون فيه ارقام السيارات التى تتقدم عند السفر للتزود بالوقود .

توسط له أحدهم عند رئيس الفرع ، ليسند اليه عملا آخر يريحه من عناء العمل كمسريا .. ويعفيه من المبيت فى الخارج .. يقلقه أن يترك جدته التى لا تكاد ترى بعينيها تبيت وحدها فى ليالى تغيبه عن البيت .

يحيينى بايماءة باسمة عند انصرافى بعد الظهر وعائدا فى المساء .

يرشق الضابط الانجليزى عند دخوله الورشة بنظرة طافحة بما يعتمل فى نفسه .. بالنظرة ذاتها يشيعه عند خروجه برفقة رئيس الفرع ذاهبا الى مكتبه ! .. والبصقة و « الكلب » !

كنت ارى محاسن ابنة زينب صاحبة مطعم الفول والطعمية الملاصق جداره لمضخة الوقود ، تطل بوجهها الأسمر من شباك المطعم .. تطمئن لوجود « أبو نازل » .. تغيب دقائق وتعود للشباك تلوح له من خلال القضبان المفتولة بشطائر الفول .

- بينكما حب ؟

سألت « أبو نازل »

أحنى راسه قليلا وقال فى استكانة :

- ماذا سنجنى من الحب . إذا لم ينته بالزواج !

- ماذا يمنع ؟

رفع رأسه ناظرا الى كأنما يستغرب السؤال :

- الجنيهات السبعة التى أتعيش بها أنا وجدتى .. هل تحقق شيئا من تكاليف الزواج وما بعدا الزواج !

قالها فى سخرية يخالطها الأسف .

فجأة قال :

- هل تعرف أن طبيب العيون طلب مبلغا لا نقدر عليه لإجراء الجراحة !

سألنى :

- ترى لو طلبت سلفة من الشركة تخصم من مرتبى هل يوافقون ؟

وجدتنى ابتسم فى أسف :

- انهم لا يعرفون هذا النوع من السلف التى تتكلم عنها !

قال محنيا رأسه :

- حتى لو وافقوا .. فهل يكفينا ما يتبقى من الأجر بعد خصم السلفة !

حدق أمامه وقال :

ـ لماذا لا يشعر هؤلاء الناس بأمثالنا .. !

مضى يتكلم بينما اخلدت الى الصمت استمع اليه :

ست سنوات وهو واقف فى مكانه بلا حركة .. بلا عمل .. كان يتصور أنه بشهادة الإبتدائية سيفتح لنفسه باب العمل .. يوم أن سمع أنه يمكن أن يشتغل كاتب بوابة لشونة قطن أثناء الصيف بخمسة عشر قرشا فى اليوم .. أسرع فى الصباح إلى مشرف العمل فى الشونة .. عندما قالوا أنه لا يحضر قبل الثانية عشرة ظهرا هرع إلى بيته فى السابعة صباح اليوم التالى .. أكتفى بالوقوف فى مدخل البيت ينتظر خروج الرجل من شقة الطابق الأرضى .. يتلمس فى نفسه الشجاعة ليفاتح الرجل الذى لم يره فى أمر تعيينه .. كان محموما لثلاثة أيام لم يبرح فيها الفراش .. طالت وقفته .. كان عليه أن يمكث فى الفراش مدة أطول حتى يتعافى من الحمى الذى انهكت قواه .. لكنه خاف أن تفوته الفرصة التى أوصاه من أبلغه الا يدعها تفوته .. وقال له ان الرجل الذى جاء من الاسكندرية لتعيين العمال الموسميين بمدينة المنصورة سيغادر المدينة بعد أيام .. ساعات لم يفتح فيها باب الشقة .. انهكته الحمى .. انتابه الاعياء .. افترش درجة السلم الأخيرة حتى خرج الرجل .. كان الموقف جديدا عليه .. والتجربة لم يمارسها من قبل .. لكن حاجته للعمل ولهفته أمداه بالاصرار لمقابلة الرجل .. لم يظفر بغير نظرة شمله الرجل بها بغير اهتمام ، أدار وجهه بعدها هابطا درجتى السلم مسرعا .. زاد إحساسه بالضياع .. لماذا هو مهمل .. تعز عليه لقمة العيش !

عاد يجلس أعياء على درجة السلم ..

اشتغالى كمسريا جاء بالصدفة .. لست ادرى من الذى أخبرنى متطوعا بقدوم العضو المنتدب للشركة فى زيارة للفرع .. ويمكننى أن اتقدم له بطلب تعيينى كمسريا .. لماذا كمسريا ؟ .. لا ينسى كم كانت فرصته حين وقع الرجل ورقة الطلب بالموافقة .. كان الوقت ليلا .. وكان الرجل بطربوشه وبذلته الزاهية والعطر الذى يفوح منه ، يجلس وسط ثلاثة رجال .. لا يعرفهم .. عدا رئيس الفرع الذى رآه مرات عديدة واقفا عند بوابة المحطة .. والذى تسلم منه ورقة الطلب فى صمت ..

غادر المكان ولم يذهب إلى البيت من فوره .. وجد نفسه يدور فى شوارع المدينة شاعرا انه على حافة حياة جديدة ..

كنا نسير فى شارع السكة الجديدة الذى اعتدنا السير فيه أكثر من أى شارع آخر ..

كنت ادور أنا الآخر فى الأيام الفائتة .. منذ ثلاث سنوات قبل ان أشغل العمل الذى أمارسه .. سنوات من التعطل والضياع الموحش .. المنصورة كثقب إبرة لا تنفذ منه عين لأمل فى يوم قادم يحمل حتى القليل من الرزق .. الكثير فى مثل عمرى وأكبر ضائعون مختنقون بالتبطل الذى لا يبدو له نهاية .. تسود الدنيا فى عيوننا بشحها وقساوتها .. الحياة مكروهة غير مرغوبة .. لا يوم لنا نعرفه إلا بالشقاء يلفنا ويحوطنا .. ولا غدلنا نفهم ان كان ثمة مصالحة بينه وبيننا لنعيشه .. حتى ينتهى النهار ونأوى إلى بيوتنا .. نتكوم بنفس كسيرة وقلب محموم مضيع الرجاء فى صبح يجئ اجردا بلا ورقة خضراء .. التقى كل صباح فى كشك الاسكافى العجوز فى شارع سيدى عبد القادر .. نصطف متلاصقين على الدكك الخشبية الضيقة

المثبتة فى جدران الكشك نتحادث ونتكلم فى كل شىء وعن كل شىء .. فراغ مخيف يحوطنا .. يعطف علينا صاحب الكشك فيصلح أحذيتنا المفتوقة .. نعابثه ، لا ينتظر منا نفعا فيما لو تكسبنا قرشا .. يسخر من تفاؤلنا الواهم : « هل وراءكم نفع انتظره ! » .. نتناول « شلبة » إبن بائعة الفجل باللوم المازح والتقريع ، كيف يرضى لنفسه إن يأكل من كد أمه التى تقبع طوال النهار على الرصيف جوار باب بيتهم بقفصى الجريد صفت على ظهرها حزم الفجل والجرجير ، بدلا من أن .. قبل ان نكمل كلامنا يغضب شلبة فى شىء من الإنكسار : أليس لكم غيرى تتسلون عليه !.. أنظروا أنتم إلى حالكم ! » ..

يهب واقفا منسلتا من بيننا فى أنفعال .. يغادر مهرولا .. نرثى له .. لنا .. يخيم علينا الصمت الأسيف .

* * *

فى مواجهة كشك الاسكافى كان دكان باولو اليونانى الملقب بالعمدة ، بشعره الفضبى المهوش المنسدل على قفاه الأحمر المجعد .. لابس السترة الحائلة اللون والصديرى المهترئ والصندل الأجرب بالجورب فى عز البرد ..

كان الدكان صغيرا قائم على منحدر ينتهى إلى زقاق ضيق مقوس .. يفتحه باولو قبل المغرب ليقدم لزبائنه الخمر الرخيصة .. يسكر فى دكانه من يملك خمسة قروش أو عشرة .. لا يتسع الدكان لغير ثلاثة أشخاص .. على بابه يجلس باقى الزبائن على كراسى خشبية قديمة واطئة لا يدرى أحد من اين جاء بها باولو ..

بدافع من الفضول كان يحلو للبعض منا مراقبة ما يدور فى «الحانة» الصغيرة .. ملامح الوجوه التى تتباين انفعالاتها ومشاعرها

أثناء الشراب ..

دهشنا ذات مساء حين رأينا شلبة يجلس داخل الدكان وفى يده كوب الخمر الصغير .. هل يملك ثمن الشراب .. ولماذا ؟ .. فجأة نشبت بينه وبين باولو مشاجرة ، كان الأخير يمسك بجلبابه يمنعه من مغادرة الدكان .. كانا يتصايحان بينما يرقبهما الزبائن فى جمود «لماذا عشرة قروش » ! .. يصيح شلبه بلسان ثقيل « تسقينى سبرتو أحمر تقول أنه كونياك وأدفع لك عشرة قروش ! .. من أى داهية جئت ياغشاش !» يزمجر باولو : ستدفع عشرة قروش ثمن ما شربت !» . «لن أدفع .. واضرب دماغك النجسة فى الحائط » .. كان واضحا ان شلبة لا يملك نقودا .. اشفقنا عليه من محاولة التخلص من موقف حرج زج بنفسه فيه دونما داع !

من بعيد جاءت أم شلبة مهرولة تطرح على رأسها جوالا قديما يصل حتى وسطها تستدفئ به من البرد .. كان هناك من أبلغها ..

ـ مالك ومال العمدة ياولد .. يلعنك ويلعنه ويلعن السم الهارى الذى يسقيه للناس .. كفاك فضائح يا ابن الكلب ! .. لا تفتح فمك . بدلا من أن تدور بالبلطجة على خلق الله رح ابحث لنفسك عن لقمة عيش ..

فى اهتياج رفع شلبه جعيرته :

ـ لقمة عيش ؟! اين أجدها لقمة العيش ؟!

ـ أمشى قدامى ياابن الكلب ..

ينصاع شلبة لأمه .. يمشى أمامها خافض الرأس تتصادم قدماه فى بعضها .. يقف باولو وسط باب الدكان ينظر خلف شلبة فى حسرة .. يرشقه بنظرة مغيظة لضياع العشرة قروش .. يهز رأسه مهمهما بلكنته

الأجنبية :

ـ المنصورة أهلها طيبون .. هذا الولد سيء .. من أين جاء !

أسرع شلبة في سيره .. أسرع أكثر كأنما يريد ألا يسمع صوت أمه .. صار بينه وبينها مسافة طويلة .. بينما مضت تتكلم بصوت منكسر ، لا يعنيها بعد المسافة :

ـ كنت أنتظرك تدخل البيت برغيف في يدك .. نقتسمه ونأكله .. لم يحدث .. فمتى سيحدث ..

بدا صوتها كمن تنوح :

ـ في حياة أبيك شربت المر .. وترك لي المر أشربه طول العمر ..

بينما لم يعد لشلبة أثر اختنق صوتها بالبكاء ، وهي تلملم حول جسدها الضامر أطراف الجوال .. تردد كلاما غاب معها وهي تبتعد ..

* * *

أغيب عن البيت طوال النهار ، لا تسألني أمي الصابرة أين رحت ولا من أين جئت .. تدرك سوء الحال وفساد الواقع .. في سذاجة وتعلق بالأمل غير المنظور لم تجد سوى شيخ الحارة مديد القامة لابس الطربوش والمعطف الأسود العتيق تكلمه عني .. لا تعرف غيره ..

أخذ بيدي ذات مساء كأنه ذاهب بي إلى الجنة !.. دخل ويدي لا تزال في يده مكتب محام معروف بالمدينة من أثريا الريف القريب ..

أوكل إليّ المحامي مهمة نظافة المكتب وشراء الخضر والحاجيات البيتية أحضرها لشقته المقابلة لمكتبه ..

في اليوم الأول وجدتني تائها وسط مشهد الأثاث في صالة الشقة الواسعة .. وزاغت نظراتي في المطبخ الفخم الذى دخلته بما أحمل من بقول وخضر ..

فى الأيام التالية ظللت أتأمل فى اندهاش .. فلم يسبق لى أن رأيت مثل هذه الأشياء ..

بعد شهور أجلسنى صاحب المكتب إلى جوار وكيله الشامخ بأنفه .. اتسلم منه أوراقا أضعها داخل ملفات صفراء بلون وجهه.. يلذ له صفعى من وقت لآخر مرة أو مرتين دونما سبب .. والثلاثون قرشا الأسبوعية اضعها فى يد أمى ..

ما الذى حدا بزوجة المحامى الطيبة القلب أن ترق لحالى .. تتوسم فىّ شيئا لا يتناسب مع عملى فى مكتب زوجها ؟ .. أوصته بى: « معه شهادة الابتدائية .. متعفف .. وديع .. مؤدب .. ليتك تتوسط له فى عمل مناسب .. »

كان قد كسب بمهارته المعروفة قضية ارث متنازع عليها بين رئيس فرع الأوتوبيس وأخوته .. بعث بى إليه ، قال : « ستعمل كاتب تحقيقات .. اتفقت معه على ذلك .. سيطلب من إدارة الشركة تعيينك .. هذه هى الوظيفة المطلوبة حاليا فى الفرع .. سيتولى تدريبك موظف هناك منتسب لكلية الحقوق » .

حينما رأيت ذلك العدد الكبير من الكمسرية وعمال المواقف والصيانة ونظار المحطات وغيرهم ، تساءلت واجفا : ماذا كان ينتظر هذا العدد من الناس غير الجوع وسواد الأيام .. لو لم تنشئ الشركة فرعها فى المدينة ؟!

كان علىّ أن أنتظر أسابيع حتى تجرى التحريات التى تقوم بها الشركة عن شخص المتقدم للعمل .. ثم السفر إلى القاهرة للفحص الطبى قبل قرار التعيين ..

قالت أمى :

ـ جاء اليوم شخص يطلب بيانات شخصية عنك .. ليرفقها بطلب العمل .. انها التحريات ..

قالت :

ـ الرجل الذى جاء إلينا أعرفه .. كان تاجر غلال معروف بشارع الساحة فى حى ميت حدر .. وأفلس لطيبته وثقته فيمن لاذمة لهم .. قال أنه أراد مساعدتنا فجاء إلى شخصيا بدلا من الغرباء لأعطيه البيانات التى تضمن الحاقك بالعمل .. وبالطبع لن يخبرهم بأنه لجأ إلىّ فى تحرياته .. صعب على حاله !.. هل يستطيع أن يعيش بجنيهات المرتب القليلة ، كما كان يعيش من تجارته ؟ .. جلس معى طويلا يتحدث عن أبيك الذى كان يعاونه فى مراجعة حساباته .. يتحسر على الأيام الطيبة التى لم يقدر لها أن تدوم .. عز على أن أراه فى بذلة قديمة لم يغيرها من زمن .. وطربوش سوده العرق .. والانكسار الذى يكسو وجهه ... لم يشرب غير القليل من الشاى الذى قدمته له بعد تمنع منه، وتركه شاكرا وانصرف ..

كنت سارحا أتخيل ما رآه الرجل من انحطاط مسكننا .. الفناء الطينى غير المسقوف والحجرة الأرضية .. كننت أضيق كثيرا بحالنا .. تسمعنى أمى أتكلم كأنما أخاطب نفسى : لا ماء ولا كهرباء .. كأننا نسكن فى الريف ..

ثم لقاءاتنا المستمرة فى العمل بالطبع .. ونظرة الرجل لى !

غير انى نفضت من خاطرى هذا الإحساس ، لتصورى أن الرجل كما وصفت حاله أمى منشغل بحياته المتدنية .. التى تستغرقه ولا تدع له وقتا للأنشغال بشئون الغير !

جاءنى صوت « أبو نازل » ، مقتحما وعيناه متسعتان بصورة لم

أعهدها :

ـ هل نحن فى هذا البلد اعداد زائدة .. لاحق لها فى العيش !

ولم أجد فى تساؤله غرابة !

كنا ما نزال نسير فى شارع السكة الجديدة الزاخرة بالمارة ومرتادى المتاجر ، والقرويين الوافدين من القرى المجاورة .

على ناصية سوق الفراخ المؤدى الى سوق الخواجات .. وقعت عيناى عليها .. اهتز قلبى .

على الرصيف الضيق جالسة .. تستند بظهرها الى السياج الحديدى المنخفض المحيط بمثلث النجيل الأخضر .. تكسو راحتها بجورب نسائى تنكب على رفوه .. وقبالتها فى الجانب الآخر الدكان الصغير لرفو الجوارب ، الملاصق للمتجر الكبير الشهير بحلوى ملبس اللوز الفاخر وشموع الأفراح .

رفعت رأسها فجأة ورأتنى .. النظرة منكسرة الجفون .. عاتبة لائمة .. تسأل والألم يلفحنى : اين ذهبت ! .. لماذا غبت !

آه ياثريا .. ما عاهدت وخنت العهد .. ما خادعت .. ما نسيت نقطة النور فى حالك الظلام .. يبكى القلب الآن وبينى وبينك خطوتين ولا ترين دموعه ..

متى تركت عملها فى عيادة طبيب عرفتها فيها أيامها .. ؟

تعيش ضيق الدنيا كما أعيشها .. كنا سنتقاسمها لربما ترفقت يوما بانفراجة .

لم تطل على الدرب رفقتنا ..

احتياج القلب الى القلب الآخر ..

فى ضحى شتائى التقينا مرتين . فى حديقة شجرة الدر تمشينا

هائمين بعاطفتنا فى المماشى الضيقة جيئة وذهابا .. نفح الزهور بلا وجود لتوزعه على الفضاء حول الحديقة وحقول القرية القريبة لكنى كنت بوجدانى أنشقه يملأ كل الوجود .

برغم تورد وجهك ووهج العافية فى عينك الصافيتين .

كنت تشكين برودة اطرافك الدائم فى برد الشتاء .

.فى اللقاء الثانى لاذت كفك الصغيرة بدفء كفى فى لحظات كانت غيمات الضحى تتلاحق منحية الشمس الدافئة .. حين نظرت الى جانب وجهك حولته الىّ كله وتلاقت أعيننا .. بينما تلألأت فى وجهك ابتسامة مضيئة كبديل لشعاع الشمس المحتجب .

فى قلبك كان يطوف أمل الاقتران ، لا نفترق .. وكان بعيدا عنى .. فما يملك مثلى لتحقيق الأمل !

عندما ابتعدت عن مكانها قليلا لا أدرى لماذا انجذبت نظراتى إلى المعطف القديم الذى يرتديه « أبو نازل » وقال انه معطف أبيه يلبسه فى برد الشتاء أيام راحاته النصف شهرية .

قبل أن نفترق طلبت إليه مدفوعا برغبة لم استطع تعليلها ان يعيرنى المعطف لأتصور به ، رافعا ياقته كعبد الوهاب فى موقف غنائى حزين ، يودع فيه حبيبته التى ذهبت لغيره فى أحد أفلامه !

أثمة ارتباط بين رؤيتى لثريا منذ هينهات ، وبين ما افكر فيه ؟!

ما اغرب العواطف الانسانية !

لم اخلع المعطف بعد التصوير ، حتى دخلت البيت لتراه امى على جسدى .. وكانت تقبع وراء موقد الغاز عند باب حجرتنا تقلى قطع الباذنجان .. دائما تقلى الباذنجان لرخص ثمنه .. وشعاع الشمس ينحدر من أعلى مفترشا الأرض الطينية حولها .

غمرنى لمرآه كل مرة احساس بالوحشة والاكتئاب !

* * *

فى أغلب الليالى حين آوى الى الفراش ، كان يهاجمنى هاجس الخوف أن أفقد العمل فى وقت ما لأهون سبب ، كما يقع لغيرى من العمال والموظفين .. فما اكثر قرارات الفصل التى ترد من القاهرة دون سابق انذار ودون مخالفة تضر بصالح العمل وتوجب الفصل !

نرى فى الصباح العامل فى قلب العمل .. وفى الظهيرة لا يظهر له أثر كانما تخطفته ايدى الشياطين ! . فى اليوم التالى نعرف انه تسلم خطابا يسافر به الى القاهرة بناء على قرار الفصل الذى ورد بشأنه ، لإخلاء طرفه !

كانت قرارات الفصل توقع من العضو المنتدب الذى نعرفه جميعا بالاسم والهيئة لكثرة زياراته المتكررة .. وكنا نعجب لظلمة البالغ مع ما يشاع عن حرصه على اداء فريضة الحج فى كل عام .. وزواجه للمرة الثانية من سيدة بارزة النشاط الدينى فى جماعة الاخوان المسلمين .. وواعظة مرموقة فى المجالس الدينية التى تعقدها الجماعة فى العاصمة وفى مدن الأقاليم .

كانت تمثل لنا عبارته المشهورة التى رواها عنه أحد وعاظ الدين الذين كانت تمدهم الشركة ببطاقات السفر على خطوطها العديدة بالمجان ! ... حين توسط عنده لشاب ضعيف البنية ليلحقة بالعمل كمسريا ، فرفض وساطته مرددا : « اريد شبابا من حديد ! »

ويبدو ان كثره العاطلين وزحفهم البائس اليائس بحثا عن عمل ، كان يغرى هذا الرجل بسياسته المتعسفة وغشامة قراراته بسهولة ، وجود عشرات البدائل لمن يتم قطع أرزاقهم .

ويشتد بى الهاجس فتتملكنى رعدة كرعدة الحمى قبل أن يغلبنى النوم .

* * *

خرجنا عند نهاية شارع السكة الجديدة بأضوائه الخافتة خلف زجاج المتاجر المطلى باللون الأزرق ، ترقبا لغارات الطائرات الألمانية ، لنمشى فى شارع البحر الذى يكاد يكون خاليا ، عدا المارة القليلين وبعض السيارات المطفأة الأنوار ..

بدت لنا بنايات مدينة طلخا المقابلة عبر النهر مغلفة بالظلام .. كأنها خالية من الحياة ..

عند دار السينما التى كان يطلق عليها سينما رويال .. كان المقهى الكبير ذو الثلاثة ابواب المغلقة ، يطل من داخله الضوء خلف الزجاج المطلى بالازرق .

دمدم « أبو نازل » فى ضيق :

- هل ترى هؤلاء الكلاب !

كان هناك أربعة جنود يقفون أمام باب الدار باجسادهم الحمراء العارية والبنطلون القصير الكاكى .. فى ايدهم اكواب من الزنك ذات المقبض الصغير يحتسون منها الجعة .. يتضاحكون .. تعلو أصواتهم بالكلمات الفاحشة ..

قدم لهم « راؤول » الانجليزى دار السينما ليحولوها الى مطعم كبير وعنبر للنوم .

- كنت ادخل « الترسو » بأحد عشر مليما .

قلتها لاخفف توتر « أبو نازل » بعض الشىء ..

- وأنا أيضا .. وكانت ابنة راؤول الجميلة ، تقوم بصرف تذاكر الدخول بالشباك فى المساء .. وطوال النهار ترمح فى شارع البحر فوق

الدراجة بالشورت الأبيض .

فجأة مال تجاه الجنود مقتربا منهم .. بصق فى جوارهم .. عاد الى جوارى وعلى وجهه أمارات الرضا !

ابتسم وحكى انه مر ذات ليلة فى هذا المكان .. ولم يطق عربدة العساكر وأجسامهم الحمراء البغيضة ... وبصقته الساخطة التى جمعها قوية فى فمه وصادفت ظهر أحدهم ! ... وركضه فى خوف تجاه شارع المدير ليختفى عن عيونهم ! ..

كان بتلك الأفعال يحملنى على التساؤل فى نفسى : أى شخص هو ؟! . أية مشاعر تتأجج فى صدره الشاب ؟ .. أى شيء فى دخيلته يمور ويفور ويحتدم لينفجر ؟! .. يكره الانجليز وتزدرى نفسه مشاهدتهم لكنه لا يجد القدرة ليمنع نفسه عن التعرض لهم بصورة ما .. تحرضه وطنيته الباكرة .. واحساسه الجارف بوطأة الإحتلال !.. أى نظرة للواقع البغيض تؤرقه ؟!

* * *

لم يشغلنى مقتل الضابط الانجليزى ، سوى نهار الحادث .. وان كان سيل الأسئلة المتلاحقة اخذ يدق رأسى فى دهشة واستغراب لوقع المفاجأة ..

غير انى حين انتهيت من العمل فى مساء اليوم نفسه ، وغادرت مبتعدا عن مكان الواقعة كان كل شيء فى رأسى قد تلاشى .. فماذا يعنينى من أمر شخص يمثل لعيوننا رمزا للاحتلال الأجنبى البغيض .

كان « أبو نازل » متغيبا فى راحته النصف شهرية « يومان حسب نظام العمل الذى تتبعه الشركة » فى ذات اليوم فلم أره .

فى اليوم الثالث للحادث كنت أجالس فريد بقطر خريج كلية

الهندسة في المقهى الذى يقع اسفل شقتهم مواجها لبوابة المحطة ، لتلقى درس اللغة الانجليزية .

كان فريد قريبا لمحصل الايرادات في خزينة الفرع . .كلمه الرجل الطيب بشأني فأبدى ترحيبه بمساعدتي . . في كل اسبوع انقده عشرون قرشا مقابل حصة الدرس ، يدسها في جيبه مبتهجا . . مما طمأنني أنه لن يتخلف عن لقائنا الأسبوعي .

كان « أبو نازل » قد اعتاد عند انصرافه من العمل أن يمر على المقهى ليحييني ويلقى في فضول نظرة على فريد بقطر . . والكراسة التي افتحها امامي على المنضدة . . . وحين نلتقي يسألني لماذا هذا الدرس ؟

كنت أطمح الى الانتساب للجامعة ،، قلت له ان الزميل الموظف الذى تدربت على يديه في التحقيقات ، انهى دراسة الحقوق في العام الماضي . . وأتمنى أن أكون مثله !

سألني فريد بقطر عقب انتهاء الدرس :

ـ هل هناك جديد بشأن مقتل الضابط ؟

ـ لا جديد . . غير ان رجال البحث الجنائي يتحركون داخل المحطة . . يقفون بين الركاب يخفون حقيقتهم بطريقتهم . . بعضهم يصعد أحيانا الى السيارة الواقفة لمراقبة حركة المسافرين في الداخل والخارج . . ويغادرونها عند تحركها للسير . .

قال :

ـ كعادتهم يتواجدون في مكان الجريمة . . ربما يعثرون على الخيط الذى يقودهم الى الجاني . .

بان التشكك في وجهه المنمش ، قال :

- لن يتوصلوا لشىء ..

قلت

- لا افهم ماذا تعنى ؟

- اقصد ان الجانى بعيد تماما عن دائرة البحث .. وبالتالى فهو غير مشتبه فيه ..

أثار اهتمامى .. قلت مستفهما :

- وراء كلامك شىء .. ؟!

صمت للحظة وقال :

- رايت بعينى ما حدث .. بينما كنت أقف فى الشرفة أعلى المقهى كعادتى ..

قبل أن أفيق من الدهشة استطرد :

- كان القاتل يلف رأسه ونصف وجهه بكوفية رمادية .. رأيته يمشى خلف الضابط الإنجليزى داخل المحطة .. ويطعنه بالسكين فى رقبته قبل أن يركب عربة الچيب .. وترك السكين مغروسة فى رقبة الرجل .. واندس مسرعا فى زحام الركاب ..

نظر فريد تجاه مطعم زينب وقال :

- دخل المطعم .. كانت هناك بنت زينب وحدها .. بعد دقائق خرج بدون الكوفية .. وقفز فوق دراجة كانت مركونة جنب حائط الدكان .. فى أقل من دقيقتين كان قد أختفى فى شارع المحكمة الشرعية ..

صمت قليلا وقال :

- بعدها تذكرت هذا الوجه .. أنت تعرفه !.. رأيتك مرة تقف معه عند المقهى بعد انتهاء الدرس ..

سكنت حركتى كأنما شلت أعضائى .. تعلقت نظرتى بوجه فريد مشحونة بالشك والرجاء والتوسل ..

لست ادرى ماذا أوحت إليه النظرة .. لكنه واجهها بنظرة سددها لعينى لحظة قال بعدها فى رزانة .

ـ لو ان القتيل شخصا آخر لتكلمت .. أما ذلك الإنجليزى الكريه .. فلن اتكلم ..

بدا صوته فى سمعى كالطنين !

تركنى وغادر ..

ظللت مشدودا إلى الكرسى أدور فى الدوامة ..

اكان « أبو نازل » ينتوى ان يفعل فعلته ، واختار لتنفيذها يوم غيابه ليبعد التهمة عن نفسه ؟

لم يداخلنى الشك بطبيعة الحال أن يصل شدة بغضه للإنجليز إلى قتل أحدهم بطريقته ..

غير انى كنت أستبعد ان تواتيه الجرأة لهذا الفعل ..

لماذا لم يعد مادام مطمئنا ان ثمة شكوك لن تثار حوله بأية حال ؟

هل تملكه بعد الحادث هاجس الخوف من العودة فآثر ان يختفى ؟

انتحب قلبى : الن أعود أراه ؟

كنت أحترق ..

* * *

اللافتــة

غـبت عنى طويلا .. أناديك .. أبوك يناديك عـبـر الرسـائل التى تكاثرت خلال السنوات ..

* * *

لماذا لم تجئ ؟

الم تشتاق إلى أبيك .. الم تحن إليه ؟

* * *

سبع سنوات من البعاد لا تكفى ؟

أهذه وصـيـتى إليك يوم ودعـتك مـسـافـرا ، اكـتم فى داخلى لوعـة الفراق :

لا تغب عن أبيك ..

مهد طفولتك وملاعب صباك ومطالع شبابك ، ألم تحن إلى حضن ابيك ؟

* * *

هل اعـتـقلتك حـيـاة الدنانيـر هناك ، فغلت يدك لا تكتب إلىّ .. وقدميك لا تخطوان صوب بلدك .. لا تبـرح البلد الذى بت سجينه .. كأنك تحولت إلى كائن هامد لا يبدى حركة ؟

* * *

ثمة شىء أسعد به ، سأهديك أياه فور انجازه .. لافتة تحمل اسمك بالخط الملون ..سأثبتها متلهفًا على جدار عيادتك التى ستستأجرها .. يراها معلقة الغادى والرائح .. ترتفع لقراءتها الرؤوس .. تشخص الأبصار لتقرأ اسمك .. الخط الملون يجذب الأنظار ..

أى سعادة تحتوينى ياولدى ؟!

* * *

أبتهج .. كتبت لى أن أضع فى اللافتة تحت اسمك : « جراح الفم والأسنان» بلون مختلف يجذب الانتباه .. تلك علامة على تطلعك إلى «العيادة» التى ستمارس فيها مهنتك .. ومن ثم نيتك للعودة القريبة .. أنى سعيد ..

* * *

اللافتة أضعها فى صدر الحجرة الخالية وحدها .. اسندها إلى الحائط .. أروح وأجئ عالق النظرة بها عبر باب الحجرة المفتوح دوما لا يغلق .. حتى لا تغيب عن عينى !

أطالع الاسم وأراك بالمعطف الأبيض والوجه المستضئ بالتفاؤل والأمل .. المحب للحياة ..

أعلى اللافتة صورة طفل بالطرطور الصوفى مرتفع القمة .. فى ردهة المستشفى هناك اراه يتدحرج راكضا يقلد المهر الذى رآه ذات مرة .. تتمايل قمة الطرطور مع ركضه .. وأمه هناك على السرير فى الحجرة المجاورة فى لحظات النهاية ..

من يومها تحتضنه أبوتى بالحب والحنان الجارف يتيما لا يجد غيرى فى دنياه ..

من أجله رضيت بالوحدة أعانيها لا انشغل عنه بسواه .. أرقد صاحيا فى الفراش الصقيعى والحجرة الباردة لا تدفئها انفاس أنثى .. يخلو منه البيت الآن .. كأنما يضن أن يؤنسنى بعد قحط السنوات .. يخفف وقدة الهجير ..

هل نسى أباه ؟

* * *

فراشك الخالى ينتظر .. ألا تعود ؟

* * *

مقهور بغيابك .. تلاشى وجودى بانعدام وجودك .. بلا حياة أنا .. كالعدم أنا ..

* * *

انهض فى قلب الليل من الفراش أنصت .. كأن طائر الموت يحوم وأسمع حفيف جناحيه ..

ادب بقدمين تائهتين وسط الضباب أبحث عنك .. تتسرب من يدى .. تجتبئ فى مكامن مجهولة لا تريد أن أعثر عليك !

ماذا دهائى ياولدى ؟ هل تلبستنى الأوهام ببعدك عنى !

الم يغلبك الحنين إلى ؟

* * *

الا تجئ ؟ .. ألا أمل ؟ .. هل أقطع الرجاء ؟

لن أبعث إليك برسالتى هذه الأخيرة ..

أمد يدا تتردد .. تود التراجع .. أجذب باب الحجرة بعد ما ظل مفتوحا طوال السنوات أغلقه ..

والدمعة فى العين تيبست كالحصاة ..

صفية

[كتبت عام ١٩٥٧ ولم تنشر]

هوت ضربات الخيزرانة الرفيعة تشوى جسدى النحيل .. فرحت أتلوى بين يدى أبى ترتفع صرخاتى .. ويأكل ألم الدموع كالنار عينى الرمداء .

افلتتنى يدا أبى فانطلقت أعوى إلى فناء البيت لأرتمى على الحصيرة البالية ..

صرخ أبى من حجرته أن أخرس فلا أسمعه صوت بكائى .. أسرعت أدفن وجهى بين ركبتى حابسا عوائى .. بينما ينتفض جسدى بشهقاتى المكتومة ..

انطوت صفية ابنة العشرين تجذبنى فى رفق لأدخل معها حجرتنا .. تملصت منها فى احتجاج غاضب دون أن أرفع وجهى .. كأنها المسئولة عما حدث ..

احسست بها تقتعد الحصيرة فى جوارى .. وتميل على هامسة فى حنان :

ـ أتغضب من أختك ! .. خفت أدخل وأبوك يضربك .. أنت تعرفه .. عصبى واقل شىء يغضبه منذ مرض ..

أفلتت منى آهة متوجعة كأنما تجددت آلامى ..

ربتت صفية على ظهرى .. راحت تمسح بمؤخرة كفها الدمع المنصب من عينى الرمداء .. تأوهت من جديد ..

ـ قلت لك رح هات زجاجة قطرة من العيادة ..

عندئذ خرج صوتى يئن محتجا :

ـ هل تريننى عندى وقت !

شهقت كالذى يختنق تحت الماء .. عدت أقول :

- من الصبح للعصر .. ادور على البيوت أجمع من كل بيت زجاجة .. ومن أجل زجاجتين انكسرتا مني .. انهال على بالضرب .. حتى شوى جسمي !

عادت الدموع تكوى عيني الرمداء .. مدت صفية يدها تمسح عيني :

- لم تقل عن الولد الذى كسر الزجاجتين في الجوال ..

قلت في ضيق :

- ألم تسمعيني وأنا أقول له !

اختلط صوتي بصوت امرأة ارتفع ينادى صفية عند مدخل الباب .. هبطت المرأة بجسدها السمين الرجراج في بطء من العتبة الحجرية إلى الفناء .. تلقى نظراتها على عيني وملامحى المتغضنة في ألم .. قالت في عطف :

- مال عينك يابني .. سلامتك !

قبل أن انطق بشيء بادرت صفية تقول : تسلمي .. تفضلى ياخالتي فطومة ..

- تعيشي ياابنتي .. والله أنا في نكد من الصبح !

- خيرا ..

- البطة التي أربى فيها من رجب .. خرجت للسوق ورجعت فلم أجدها .. جئت أسألك عنها .. هل رأيتها ؟

كنت احدق بعيني المفتوحة في ثدى المرأة الهائلين المتدليين حتى بطنها المستدير المنتفخ .. فلم انتبه إلى رنة الاضطراب في صوت صفية وهي تقول :

- لا والله ياخالتي فطومة .. بابنا لم يفتح الا ساعة ما جاء أخي الآن..

ـ طيب ياابنتي .. تركتك بعافية ..

كعادتي حينما تقع عيني على ما يثير الضحك .. نسيت ما بي لأطلق ضحكة صافية ، بينما أسرعت صفية تغلق الباب خلف المرأة ، وقلت :

ـ ضخمة جدا هذه المرأة مثل الدرفيل !

لم تعلق صفية بشيء .. ارتمت في جواري ..

تطلعت إلى وجهها مستغرقا فلحظت اصفرار لونها .. قبل أن أسألها ماذا بها بادرت تقول بصوت أحسسته يلهث في صدرها :

ـ محروس !.. أنا خائفة أن يعرف أبوك !

تلاشى من وجهي سريعا أثر ضحكتي وغمغمت متسائلا :

ـ يعرف ماذا ؟

زادت لهثات صدرها ..

ـ البطة .. لم أكن أعرف أنها بطة خالتي فطوطة ..

ابتلعت ريقي مضطربا كانما سرت فيّ عدوى صفية ..

سألتها بلهفة :

ـ مال البطة ؟!

ـ دخلت عندنا في الصبح .. ظللت أحبسها حتى العصر ..

ـ وبعد ؟

ـ عندما لم يسأل عنها أحد .. ذبحتها ..

حملقت في صفية غير مصدق .. وجدتني أثب إلى المطبخ . لأرفع في لهفة غطاء الوعاء النحاسي وقلبي يدق صدري بعنف ..

التقطت أنفاسي وأنا أتأمل البطة الذبيحة في الوعاء .. تحولت إلى صفية التي لحقت بي ووجهها يزداد اصفرارا وزأرت :

ـ أرم هذه البطة !.. غير ممكن أن نذوقها !

بوغتت صفية .. أطل الذعرمن عينها .. اسرعت تختطف الغطاء من يدى وطرحته على الوعاء هاتفة :

- اسكت ! أبوك يسمع !

خفضت من صوتى وعدت أقول مستنكرا

- كيف فعلت هذا ! .. نأكل ما ليس لنا ؟!

أتى ردها كالأنين :

- أبوك .. لم يذق شيئا يسنده من زمن ..

أمسكت وانا أبتلع انفاسى متطلعا الى ابنة العشرين التى تحمل على كتفها الضعيفتين منذ ذهبت أمنا هم رجلين ..

اطرقت اتمثل أبى الذى عرفته منذ وعيت الحياة ساعيا بين القرى البعيدة والقريبة .. يجمع الزجاجات الفارغة ويبيعها .. يقبض ثمنها قروشا هى عماد حياتنا ..

ذكرت اليوم الذى جاء فلم يخرج فيه إلى القرى .. وقصر سعيه داخل المدينة لا يتعداها .. وعاد يوما إلى البيت فلم يعد يخرج منه ..

اطرقت أحدق أمامى بعينى المتعبة فى الجوال المكوم عند باب المطبخ الذى ينوء جسدى الضعيف بما يحويه من الزجاجات الفارغة فى عودتى كل عصر .. منذ سعيت فى الطريق التى بدأها أبى .

رفعت رأسى مرهقا أسأل صفية بصوت فيه رنة الاشفاق والخوف :

- ماذا ستقولين لأبى .. عندما يسألك من أين اتيت بالبطة ؟

ومضت لمحة من الخوف فى عينى أختى قبل أن تقول :

- ساقول له كانت عندها صغيرة .. من زمان ..

كان صوتها واهنا متهافتا كمن أضناه سفر طويل..

* * *

فيما كانت صفية تعيد الأطباق الفارغة إلى المطبخ بعد العشاء .. لطمت بابنا طرقات حادة اندفعت وراءها فطومة حين فتحت الباب إلى الداخل .. تملأ صيحاتها البيت :

ـ بنت يا صفية ! .. البطة تدخل عندكم لا تخرج يابنت !.. الولد ابن أم زكى جاركم رآك تغلقين عليها الباب .. أهكذا ؟! .. تأكلون الحرام !

لم نسمع ليلتها صوت أبى ..

لم تدخل صفية حجرته بقوالح الذرة التى تشعلها له كل ليلة .. حين تطلعنا واجفين إلى وجهه فى الصباح .. هرب منا بنظراته ..

نعمة الجهل

[كتبت عام ١٩٥٧ـ ولم تنشر]

كان بسطوروس موشكا على الإنتهاء من أفكاره فى الصباح عندما تذكر شيئا .. وضايقه شديدا هذا الشىء .. إن وكيل أعماله اسكندر سيغيب اليوم عن المكتب .. ومعنى هذا أن بسطوروس سيضطر إلى أن يقطع هذا المشوار الطويل إلى المصرف .. ليسحب مبلغا من رصيده هناك لاتمام الصفقة الكبيرة التى تحدد لها ظهر اليوم .. وأشد ما يضايق بسطوروس ذهابه بنفسه إلى المصرف الذى لا يحب ـ لا يدرى لماذا ـ الذهاب إليه على الاطلاق .. ثم أيضا هذا المشوار الذى سيتعبه .. لو أنه يستعين فى مشاويره بركوب أى شىء حتى ولو الترام لهان الأمر .. لكنه يكره أن يستغنى عن قدميه فى قضاء مصالحه .. ويحزنه كثيرا الا يستخدمهما فيما خلقتا من أجله !

ومن ثم فلا مناص من أن يقطع هذا الطريق الطويل سيرا على قدميه فى لفح الحر ووقدة الشمس ..

اللعنة على هذا الوكيل !.. الم يكن يستطيع أن يؤجل زفاف ابنته إلى يوم آخر غير هذا اليوم ؟.. أكانت السماء ستنطبق على الأرض .. أو يعلن البنك الأهلى أفلاسه ؟

أزاح بسطوروس بمرفقه طبق الفول المدمس فى ضيق .. وراح يمتص بلسانه بقايا البصل الأخضر العالقة باسنانه الصفراء ..

هاجمته تلك الخواطر التى من أجلها يحرص دوما على أكلة الفول المدمس والبصل الأخضر طوال أصبحة السنوات السبع الماضية .. لا يرضى عنها بديلا !

خواطر الخوف من عودة الفقر اللعين إذا هو أفرط فى الطعام أو أسرف فى النفقات ..

هز بسطوروس رأسه راضيا عن نفسه غير الأمارة بالسوء !

والتى لم تحد ابدا عن القاعدة التى وضعها لها طيلة السبع سنوات تلك .. وشكر الرب ان استطاع مغالبة نزغات الشيطان .. وأن يصمد أمام اغرائه فلم يأت الى بيته بزوجة ! .. وكفاه الخمسة عشرة جنيها التى تتسلل من بين اصابعه فى اول كل شهر والله كل شهر ! الى جيب وكيله اسكندر .

هز بسطوروس راسه غير راض هذه المرة . فلو كان يعرف القراءة والكتابة لما احتاج الى هذا الوكيل .. ولوفر لنفسه هذه النقود ليضمها الى رصيده فى المصرف .. لكن لا فائده من التفكير فى هذا الآن . اجل من الأفضل ان يرجئ التفكير فى هذا الأمر الى وقت آخر .. وان كان لن يفيده التفكير فى شئ ! .. والافاته ميعاد المصرف الذى سيقطع إليه المشوار الطويل والصفقة بالتالى ..

لم يدر بسطوروس لماذا راح يستعرض فى الطريق صور حياته منذ عشر سنوات . كانت الحرب لم تقم بعد .. وكان بائسا اشد ما يكون البؤس .. وكانت بضاعته التى يتجر فيها لا تتجاوز بضع أقات من شمع النحل يشقى فى جمعها من القرى المجاورة لبلدته فى اعماق الصعيد ..

وبالرغم من فلاح بسطوروس فى كسب القروش من تجارته .. فانه كان يضطر الى مغالطة نفسه فى عدد وجبات الطعام ليوفر بعض هذه القروش لينزح الى القاهرة .. فقد كانت نفسه تتوق الى الحياة فى زحام المدينة الهائجة وضوضائها ..

استطاع بسطوروس ان يحقق حلمه الكبير حين اكتملت لديه عشرة جنيهات اخذت من عمره أطول الزمن !

بيد أن الحظ فى القاهرة لم يفتح له ذراعيه كما كان يتوهم .. فذاق الجوع وعرف التشرد بعد ما تسربت من يديه فى أعمال صغيرة تلك الجنيهات التى كدح لجمعها طويلا ..

لجأ بسطوروس الى معارفه الذين وفدوا من الصعيد مثله منذ سنوات . وتحقق لهم فى المدينة مالم يتحقق له فالحقوه بعمل صغير باحدى شون القطن .

لكن لم يمض على التحاق بسطوروس بالعمل غير ساعات حتى طرد منه طردة مخزية .. عندما اكتشفوا انه يجهل القراءة والكتابة .. ومن المستحيل ان يمارس العمل ككاتب بوابة !

على ان بسطوروس لم ييأس حينئذ .. وراح يواصل السعى من جديد لدى بعض سراة اقليمه المقيمين فى القاهرة .. ولم يرده هؤلاء خائبا .. فقد اكتتبوا فيما بينهم وأنشأوا له كشكا خشبيا على أحد الأرصفة فى وسط المدينة ليبيع فيه السجائر وورق اليانصيب . وسمح له أجدهم باستعمال حظيرة سيارته مكانا للنوم .

بدأ بسطوروس يمارس مهنتة الجديدة ..وبدأ أيضا يطبق نظامه القديم ليحرم نفسه من الطعام بضع وجبات فى الأسبوع .. ولا يأكل غير الشطيرة التى لا يزيد ثمنها عن نصف قروش ..

عندما قامت الحرب العالمية الثانية كان الكشك الصغير قد ازدهر ونما .. وعرف صاحبه الصغير والكبير .. وكثرت زبائنه من المدخنين ومدمنى ورق اليانصيب الذين لا يغادرون مقهى الاستقلال المجاور .

كمن الحظ الذى كان غائبا لبسطوروس ذات صباح .. حين عرض عليه احد زبائن المقهى الدائمين مشاركته بعشرة جنيهات فى صفقة مضمونة الربح لا تستغرق غير ساعات قليلة .. وقبل بسطوروس

العرض دون تردد بعد موافقة الرجل على أن يلازمه بسطوروس فى عملية الشراء والبيع .. وأن يقبض ارباحه منها فور اتمامها .

عاد بسطوروس الى كشكه فى المساء وفى جيبه خمسة وعشرون جنيها !

فى المرة التالية اضاف الى العشرة جنيهات عشرة اخرى .. وتضاعف ربحه آخر النهار ..

بعد بضع مرات خرجت من مركز تموين جيش الحلفاء عشرة عربات كبيره من ناقلات البضائع محملة برؤوس الذبائح وسقطها وأرجلها .. لحساب العميلين بسطوروس وشريكه !

فى الاسبوع التالى وقع الشريكان عقدا مع مركز التموين يمنحهما وحدهما حق الاستيلاء على البضاعة كلها دون غيرهما ..

امتلأت القاهرة ببضاعة بسطوروس وشريكه .. وانتشر العملاء فى الاسواق .. وتدفقت الأرباح .

تضاعف نشاط بسطوروس فراح يعقد لحسابه الخاص صفقات متنوعة .. واتسعت دائرة اعماله .. وصار لا يقنع بالصفقات الصغيرة التى تقل عن اربعة آلاف أو خمسة من الجنيهات !

رأى زبائن مقهى الاستقلال ذات يوم وجها جديدا فى كشك بسطوروس يبيع لهم السجائر وورق اليانصيب .

تلفتوا يوما آخر ليجدوا بسطوروس يرمى فى فضاء الأرض الفسيح المجاور اساس العمارة التى شيدها فى بضعة اسابيع من عدة طوابق .

أذهلهم أن بسطوروس نفسه لم يتغير فى شىء .. فقد ظل مظهره على حاله الأول .. يروح ويجئ فى سترته القديمة المتآكلة .. وجلبابه الزفير الرخيص .. وطربوشه الباهت .. ولا يتناول ابدا غير طعامه من شطائر المدمس والطعمية .. وان كانت زادت الى رغيف كامل ..

اصبح بسطورروس بعدما انتهت الحرب بزمن قصير شيئا مألوفا بين الناس يشيرون اليه على انه « ثرى حرب » أخلص لنشأته فلم يحد عنها .. وظل فى نظرهم نموذجا للغنى الشحيح المقتر ..

* * *

توقف بسطورروس امام المصرف بعض الوقت يرقب الداخلين اليه والخارجين منه .. تقدم ودلف من الباب الكبير ..

فيما كان بسطورروس يدس ختمه النحاس فى جيبه .. ليتناول رزمة الأوراق المالية الكبيرة فيدسها بحرص فى جيوب سترته الداخلية والخارجية .. تناهى الى سمعه همسات قريبة :

ـ اهذا بسطورروس المليونير ؟! عجيبة هذه الدنيا : مليونا جنيه ولا يعرف القراءة والكتابة ؟! . ماذا لو كان يعرف ؟!

ارتسمت على شفتى بسطورروس ابتسامة ساخرة .. وهو يتامل الأفندية المتهامسين وبين أيديهم الاقلام المعدنية ..

على أنه غادر المصرف يسأل نفسه :

ـ نعم صحيح ! لو كنت أقرأ وأكتب فماذا كنت أحقق ؟!

لم يعيه البحث طويلا فى غمار حياته التى خاضها .. فقد طالعه الجواب من خلال صورها السريعة ..

لم يلبث بسطورروس أن هز رأسه ومصمص شفتيه .. وشكر الرب على جهله .. ذلك الذى لولاه لظل كاتب بوابة فى شونة القطن !!

الجـــوع

[كتبت عام ١٩٥٧ - ولم تنشر]

٣٧٠,٠٠٠ جنيه عطور واحمر شفاه .

١٥٠,٠٠٠ جنيه أطعمه للكلاب .

« أطعمة خاصه للكلاب » رددها وضحك .. ضحك فى مرارة القى فى ضيق بالمجلة التى استعارها من صديق على الحشية البالية ..

نهض ليرتدى ثيابه .. بارغم من الظلمة التى بدأت تشمل الحجرة فلم يعن باضاءه المصباح

مائه وخمسون ألفا للكلاب !

انتفض فى الطريق حين طافت بنفسه الأمنية أن يصبح كلبا !

أهانت عليه نفسه الى هذا الحد ؟!

وثب أمام عينيه الطبق الكبير الممتلئ باللقيمات الجافة التى يحتفظ بها فى الحجرة .. والتى عافتها نفسه اخيرا فأضرب عن تناولها منذ الأمس ..

عاد يضحك فى مرارة !

دلف الى العمارة الضخمة .. لم يلتفت الى عامل المصعد الذى لم يعن بالنظر إليه .. راح يدور على السلم كالساقية .. فى كل دقيقة يترك وراءه طابقا إثر آخر .. يقابل نساء معطرات ناعمات ورجال تجرى فى وجوههم الدماء .. ذقونهم حليقة ناعمة .. امتدت يده تتحسس ذقنه النامية الخشنة ..

وقف اخيرا أمام الحجرة التى اتعبه الظلام فى البحث عن بابها بين الحجرات العديدة التى تملأ سطح العمارة .. طرق بابها مرة واحدة كما تعود .. انتظر ان ينفتح الباب عن صديقه لينهى اليه نجاحه فى مسعاه لدى القوم الطيبون الذين يعرفهم وانه سيتسلم عملا .. هذا

الصديق الكادح مثله .. الذى كان ضائعا مثلما هو ضائع ..

لم يسمع حركة فى الداخل .. اعاد الطرق .. ظل يطرق .

لم يجبه غير ورقة تطل من اسفل الباب الصغير .. فيها انهى إليه الصديق باخفاقه فى مهمته .. واعتذر لسفره فجأة الى بلدته لمرض امه ..

الفشل .. دائما الفشل حين يسعى بنفسه . وللآخرين حين يسعون لأجله ..

احس كأن نارا تشتعل فى رأسه . وأن رائحة مخه المحترق تزحم انفه وتملأ صدره .

ظل وقتا منتصبا فى مكانه .. يحملق فى باب الحجرة كأنما يتوقع شيئا غير الذى يواجهه !

استدار وهبط السلم متأملا .. احس انه يفقد القوة التى صعد بها . ادرك أن هوة البطالة التى تبتلعه من زمن آخذة فى الغوص به الى اعمق اغوارها .. وان نضاله الشاق الطويل لم يفلح فى ان يدفع عنه الجوع الذى يقف له بالمرصاد .

كم حرفة لا يعرفها اضطر الى ممارستها ؟ كم عمل شاق أرغم على مزوالته ؟

لكنه كان يقبل كل هذا راضيا .. فلم يكن الأمر سهلا بالنسبة إليه .. لأنه يتعلق بحياته .. برغيف الخبز الذى لا يقدر على العيش بدونه .

فى كل مرة كان يجد نفسه مطرودا من المصنع .. المتجر .. الفندق .. أى شىء ! يعود من جديد الى سالف جوعه وصعلكته التى لا تنتهى .. يحتويه الضياع فى النهار وفى الليل .. يكتنفه البؤس من كل جانب !

وجد نفسه فى الشارع .. الأضواء المتألقة التى يراها كل ليلة ثابتة

لا تتغير . تشع كلها بالانوار امامه وخلفه . عن يمينه وشماله . فوق رأسه لتتآمر عليه ! .. تصفعه بالحقيقة .. الظلام الذى يعيش فيه ! ود أن يحطم هذه الاشياء كلها والناس كلهم .. ما من أحد يهتم به .. الكل لاه عنه .. الذين يعرفونه يتجاهلون لا يعبأون به .. كلهم يحطمونه ! .. كلهم يصرعونه ! .. شقاؤه لا تسعه الدنيا بأسرها ! . لا أحد يسمعه فوق ظهر الأرض !

مرة اخرى ود لو يحطم كل من يراه ! كلهم !

عض على شفتيه حتى كاد أن يدميهما .. ملعونة الحياة .. الدنيا .. وكل من فيها !

عض على شفتيه مرة أخرى قبل أن يفكر فى ان يحطم رأسه على الحائط الذى يسير بجواره .

اصطدمت به امرأة أو أصطدم هو بها ، لا يدرى ..

التقطت عيناه فى لمحة صورة وجهها .. وعى ذهنه المكدود شيئا واحدا فى هذا الوجه ! طلاء الشفتين !

عاودته احاسيس أول الليل : الاحصائيات ! مئات الألوف من الجنيهات تنفق من اجل هذا الطلآء الأحمر .. احمر الشفاه ومساحيق الوجه .

ثمة شيء آخر أثاره : مئات الألوف من الجنيهات يجيئون بها أطعمة للكلاب !

شعر بغصة فى حلقه . احس فى فمه طعم العلقم .. ملكته رغبة جامحة فى الانزواء ليبكى ! .. يبكى كثيرا ! .. ينتحب !

بقى وقتا طويلا فى مكانه .. يضغطه شعور بالضياع والخوف المستخفى دوما فى باطنه .. والساعة يجلجل فى كيانه .. يقرع احساساته كلها .. يسمع له فى الأعماق شتى الاصوات والكلمات !

مشى اخيرا ليضيع فى السير التائه احاسيسه المدمرة .
بعد قليل احس بألم حاد فى امعائه .. كأن سكينا ثالما يعمل فيها بقسوة .
أدرك انه الجوع عندما يبلغ مداه .
جسده كله يعوى نداء للطعام .. يعذبه غاية العذاب !
بالرغم من طول الطريق بينه وبين حجرته ، حيث تنتظره هناك اللقيمات ، فانه تلكأ فى سيره . تمنى الا يعود الى تلك الحجرة العارية التى لا ينتظره فيها سوى الوحدة والوحشة .. والضيق والألم والظلام !

مشى كثيرا .. اكثر مما تعود .. بداله ان لن يصل الى حجرته .. ضل الطريق !
توقف فى الظلام محاولا ان يجمع ذهنه المبعثر ليميز الطريق فى وقفته .. احس بضعف شديد تترنح له كل خالجة فى جسده . بدأت قواه تهبط وتهبط .. تستلها يد خفيه .. بردت اطرافه .. دارت رأسه وظلت تدور .
ايقن فى لحظة خاطفة انه سيسقط اعياء .. اخطأ حين استسلم للجوع يومين كاملين لا يتبلغ حتى بالقليل من اللقيمات .
تضاعف شعوره بالاعياء .. لكنه راح يقتلع قدميه من الأرض مواصلا السير .. فى كل خطوة كان يشد ساقيه بكل قواة الباقية .
خرج من شارع الى شارع لا يعرف اى طريق يسلك .. ولا متى يصل الى حجرته ..
طال الطريق .. اشتهى ان يرتاح .. ود ان يستند الى جدار من الجدران الممتدة الى جوازه ..يجلس على الأرض .. ينام .. فى أى مكان ينام .. طويلا ينام فلا يستيقظ أبدا .

المحتـــوى

للكاتب

الرواية :

١ - أيام من العمر ١٩٥٤ دار الفكر الحديث
٢ - دماء فى الوادى الأخضر ١٩٦٧ دار الفكر الحديث
٣ - الأجنحة السوداء ١٩٦٧ دار الفكر الحديث (طبعتان)
٤ - الحب فى أرض الشوك ١٩٨٠ كتاب اليوم
٥ - هزيمة ملك ١٩٨٤ هيئة الكتاب
٦ - الهشيم ٢٠٠٣ دار النيل للنشر
٧ - الجراد والزقاق ٢٠٠٤ دار النيل للنشر
٨ - منار ٢٠٠٦ دار النيل للنشر

القصص القصيرة :

١ - الحياة امرأة ١٩٥٥ دار الفكر الحديث
٢ - الأيام الضائعة ١٩٥٦ دار الفكر الحديث الجائزة الأولي في القصة (طبعتان)
٣ - ارواح وأجساد ١٩٥٨ دار الفكر الحديث
٤ - حب وحصاد ١٩٥٩ دار الفكر الحديث
٥ - الإصبع والزناد ١٩٦٠ دار الفكر الحديث
٦ - الأعمى والذئب ١٩٨٠ دار الأمل للنشر (طبعتان)
٧ - العشق فى وجه الموت ١٩٨٣ دار المأمون (جائزة الدولة التشجعية)
٨ - حصاة فى نهر ١٩٨٣ هيئة الكتاب
٩ - البحيرة الوردية ١٩٨٣ دار المعارف
١٠ - نزيف الشمس ١٩٨٥ دار المأمون للنشر

١١ - سقوط لحظة من الزمان ١٩٨٦ هيئة الكتاب

١٢ - زائرة الليل ١٩٨٨ دار الاشعاع (طبعتان) دار النيل للنشر

١٣ - عصف الرياح ٢٠٠٣ دار النيل للنشر

١٤ - شئ لا أملكه ٢٠٠٥ دار النيل للنشر

١٥ - الدائرة السوداء ٢٠٠٦ دار النيل للنشر

١٦ - اقاصيص مصرية ٢٠٠٦ الهيئة العامة للكتاب

المسرحية :

١ - لعبة الثعالب ١٩٨٤ هيئة الكتاب

٢ - الرقص على الحبال ١٩٨٨ دار الناشر العربى

٣ - حكايات الحى القبلى ١٩٨٩ دار الاشعاع للنشر

٤ - الكل عريان - الخندق ١٩٨٩ دار الاشعاع للنشر

٥ - احضنوا الشمس - المولود المفقود ٢٠٠١ اتحاد الكتاب

٦ - حديقة الحب . المولود المفقود . اشياء صغيرة - دار الاشعاع للنشر

السيرة الذاتية :

لمحات من السيرة الذاتية ٢٠٠١ نادى القصة - الكتاب الفضى (الجزء الأول)

قيد النشر :

الفوانيس - مسرحية فى ثلاث فصول

المفتون - قصص

الفأس والبشر - ملحمة روائية فى خمسة أجزاء

دارالنيـــــل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شـارع عبـده بدران

م. الباشا-المنيل-القاهرة

ت: ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع لدار الكتب

٢٠٠٦/٨٤٨٨

الترقيم الدولى

I.S.B.N.: 977-8488